جماعة الأزهر للنشر والتأليف

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

تأليف

السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

وكيل ندوة العلماء بالهند

الطبعة الثانية

« مزيدة منقحة »

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

لقد أحس صديقنا الفاضل أبو الحسن ما نحسه جميعاً فى حسرة بالغة وألم شديد ، وهو ما ارتضته الدول الإسلامية لنفسها من السير فى المؤخرة وراء العالم الغربى ؛ تميل إلى ما يميل ، وتقبل حكمه فيما يعرض له من شئونها ، وترضى ما يقره من « قيم » حسب موازينه الخاصة به . وكان من هذا أن فقد العربى — والمسلم بعامة — ثقته بنفسه وجنسه ودينه ومعاييره ، وقيمه العالية التى كان يحرص عليها أجداده وأسلافه الأماجد ، ويحلونها من أنفسهم المكان العلى المرموق . وهذه علتنا التى يجب أن نطب لها ، وفى ذلك تتركز مشكلتنا أو مشاكلنا التى يجب علينا أن نجد الحل الناجع لها من صميم ديننا وتاريخنا وتراثنا الروحى العقلى الخالد . وإلى هذا كله نظر مؤلف كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، وإليه جميعه عنى نفسه وعمل جهده .

حقا ، ليست مشكلة العالم الإسلامى اليوم فى عدم الدعاوة للاسلام بين غير المسلمين ، ولا فى اكتساب مسلمين جدد ، وإنما هذه المشكلة هى انصراف المسلمين عن الإسلام وعن الشرق إلى الغرب بحضارته وقيمه التى يدعو إليها وموازينه التى بها يزن الأمور . ومن ثم ، صرنا مسلمين بالاسم والولادة والموقع الجغرافى فحسب ، وعزفنا عن الإسلام بالفعل ، حتى أصبحنا ولا نعرفه فى تشريعنا وتقاليدنا التى نأخذ هذه الأيام أنفسنا بها ، ولسنا فى حاجة فى هذا لضرب الأمثال التى نحسها ونلمسها جميعا فى رجال الحكم ، وفى ممثلى البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب ، وفيمن يجب أن يكونوا القدوة الطيبة بحكم مناصبهم الدينية فى مصر وغير مصر ، والأمر لله من قبل ومن بعد ! .

لقد اختتم الله بالإسلام رسالاته للعالم ؛ فليس لنا أن ننتظر اتصالا جديداً من السماء بالأرض يطهرها مما كاد يعمها من شرك وضلال وفساد ، ولا نبياً آخر بعد رسول الإسلام ، يخرج العالم برسالة جديدة من الظلمات إلى النور ، ولا قرآنا جديداً يهدى الإنسانية الحائرة إلى سبيل الرشد والسعادة . ولكن الله الرحمن الرحيم ترك فينا بعد هذا ، أو بسبب هذا ، كتابا لن يضل من اتبعه ، وشريعة لن يشقى من عمل بها .

وكل ما يجب أن نعمل له ، لنخرج والعالم كله من هذه الجاهلية التى احتوتنا من جميع الأطراف ، هو إعادة الثقة بديننا حتى يكون أساس حياتنا فى كل مقوماتها ، وليس لنا أن نطلب من أحد أن يؤمن بهذا الدين قبل أن نؤمن نحن أولا به ، ولن يكون هذا الإيمان إلا بالقدوة الطيبة الصالحة نقدمها للناس جميعا .

إن العالم ، وهذا أمر لمسناه بأنفسنا لمساً بأوربا ، يتخذ من فشل المسلمين سياسياً واقتصادياً دليلا حاسما على عدم صلاح الإسلام لقيادة المسلمين بله العالم كله ! مع أن هذا

العالم المسيحى نفسه ، حين كان المسلمون مسلمين حقا من ناحيـة العقيدة والعمل على السـواء ، قد تزعزع عن مسيحيته عندما شاهد ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح منقطع النظير ، إذ اعتقدوا — بحق — أن نجاح المسلمين هذا دليل قاطع على صدق دينهم ، ما دام الله لا يؤتى نصره إلا لعباده المختارين (١).

وليس ما نقول ، من أثر القوى الطيبة الصالحة فى الدعاوة للاسـلام ، بالقول الذى لا يرتكز على دليـل وشواهد من التاريخ الصحيح . إن صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام نفسه يذكر ما يأتى حرفيا :

« ويظهر أن أخلاق صلاح الدين ، وحياته التى انطوت على البطولة ، قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحريا خاصا ؛ حتى إن نفرا من الفرسان المسيحيين ، قد بلغ من قوة انجذابهم إليه ، أن هجروا ديانتهم المسيحية ، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانيةَ فارس إنجليزى من فرسان المعبد يدعى ، روبِرْت أوف سانت ألبانس Robert of ST. Albans عام ١١٨٥م واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين ، وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحى هزيمة منكرة فى واقعة حطين ، وكان جُوِى guy ملك بيت المقدس بين الأسرى .

وحدث فى مساء المعركة أن ترك الملكَ ستة من فرسانه ، وفروا إلى معسكر صلاح الدين بمحض إرادتهم » (٢) .

هذا شاهد من الشواهد التى لا تحصى كثرة ، والتى تزخر بها كتب التاريخ فى القديم والحديث ، ومنها نعلم أثر القدوة الطيبة فى النفوس ، حتى فى نفوس غير المسلمين الذين كنا نراهم . خصوما لنا وأعداء ؛ ومنها نعلم أيضاً سبباً من الأسباب القوية التى يسَّرت للمسلمين مافتح الله عليهم من فتوح ، وماظفروا به من أمجاد .

إن هذا الإسلام لا يصلح اليوم إلا بما صلح به فى الأمس ، إيمان به إيمانا يخالط شغاف قلب المؤمن ، واستعذاب للتضحية فى سبيله بما يعتز به المرء من مال ونفس ، واعتزاز لما جاء به من تشاريع ومبادىء وتقاليـد صالحة لإنهاض العالم وإسعاده ، ودعوة له بالعمل الصالح والقوى الطيبة ، وعدم القضاء إلا بحكمه ، وجعل الحياة فى كل جوانبها لا تقوم إلا عليه .

---

(١) انظر فى هذا كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد الإنجليزى المعروف ، ص ٧ من الترجمة العربية ، للدكتور حسن ابراهيم وآخرين .

(٢) ص ٨٢ — ٨٣ من الكتاب المذكور .

علينا إذا أردنا أن نأخذ مكاننا من جديد فى قيادة الإنسانية ، أن نعتقد — اعتقاداً حقاً يظهر أثره فى كل مانقول أو نعمل — مايراه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال من أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويساير الركب البشرى حيث اتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملى عليها إرادته ، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ؛ إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الآمر والناهى ، وإذا تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ؛ بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل فى صراع معه وعراك ، حتى يقضى الله فى أمره . إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد[1] .

وبعد ، ماذا أريد أن أقول بعد ذلك فى هذه الكلمة التى أحسها طالت بعض الشىء فى تقديم كتاب هو بنفسه وبكاتبه غنى عن كل تقديم كما قلت فى أول الحديث ؟

إنى — علم الله — لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتاباً حوى من الخير ما حواه هذا الكتاب ، ولا كتاباً وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض كما فعل هذا الكتاب ، ولا كتاباً نفذ كاتبه إلى روح الإسلام ، وأخلص ويخلص فى الدعوة له ، ويقف كل جهوده على هذه السبيل كهذا الكتاب .

علينا إذاً أن نفيد من هذا الكتاب ، ومن الوسائل التى يدعو مؤلفه الفاضل لاصطناعها ، لنصل إلى النهضة المرجوة ، والكرامة والمجد فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى ، وذلك ما لا يكون لنا إلا إذا غيَّرنا من أوضاع التعليم ومناهجه وغاياته عندنا ، وإلا إذا جعلنا همنا تربية النشء على أسس إسلامية صحيحة ، وجعلنا الغاية من التربية والتعليم عندنا النهضة بالعالم الإسلامى حتى يصل إلى ما يجب أن يكون له من مكانة ملحوظة فى هذا العالم ، واصطنعنا لهذا الوسائل الناجعة حقاً .

إن هذا ، حين يتم ، إن أراد الله لأمة الإسلام إفاقة من نومها ونهضة من كبوتها ، يجعل من تلاميذ اليوم رجالات مسلمين حقاً فى المستقبل ، يحسنون تصريف شئون الأمة حين توضع أمور الأمة بين أيديهم ، يجعل منهم رجالا شجعاناً أمناء لدينهم وأمتهم ، لا هم لهم فى حياتهم إلا إعادة مجد الإسلام والعالم الإسلامى .

---

(١) من بحث للأستاذ أبى الحسن الندوى نفسه ، عنوانه : شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، ص ٦٦ — ٦٨ .

والوسائل الناجعة للوصول إلى تلك الغاية المجيدة من التربية والتعليم جد كثيرة ومعروفة إن أردناها ، ولكن يحسن أن نختم هذه الكلمة بقبس من كلام الأستاذ أبى الحسن الندوى نفسه إنه يقول :

« والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا فى العالم الإسلامى نار الحماسة والإيمان ، وتحدثا فى كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلى وتجعلا من أمة مستسلمة منخذلة ناعسة أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقاً على الجاهلية وسخطاً على النظم الجائرة . إن علة علل العالم الإسلامى اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة ، والتبذير الزائد فى الحياة ؛ فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس ، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية ، إن وجدا إلى القلب سبيلا ، يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبى فى وقته ولا يصلح العالم إلا به ، حينئذ يقوم فى كل ناحية من نواحى العالم الإسلامى ، فى كل أسرة إسلامية ، فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً . هنالك تفوح روائح الجنة ، وتهب نفحات القرن الأول ، ويولد للاسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم فى شىء » !

من هذه الكلمات التى قبسناها من هذا الكتاب الذى نكتب هذا التقديم له ، نرى أى روح كبيرة أملت على المؤلف ما كتب ! نفع الله به وبكل آثاره ، وجزاه عن الإسلام وأمته خير الجزاء .

الدكتور محمد يوسف موسى

مقدمة

بقلم الباحث الإسلامي الأستاذ سيد قطب

ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم ، وثقتهم بماضيهم ورجاءهم فى مستقبلهم . . وما أحوجهم لمن يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذى يحملون اسمه ويجلون كنهه ، ويأخذونه بالوراثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة .

وهذا الكتاب الذى بين يدىّ : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » لمؤلفه « السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى » من خير ما قرأت فى هذا الاتجاه ، فى القديم والحديث سواء .

إن الإسلام عقيدة استعلاء ؛ من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر ، وروح الثقة فى غير اغترار ، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل . وأنها تشعر المسلمين بالتبعة الإنسانية الملقاة على كواهلهم ، تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة ، وهدايتها إلى الدين القيم ، والطريق السوى ، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر وتؤمنون بالله » ... « وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وهذا الكتاب الذى بين يدىّ يثير فى نفس قارئه هذه المعانى كلها ، وينفث فى روعه تلك الخصائص جميعها ، ولكنه لا يعتمد فى هذا على مجرد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية ، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته ، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعا ؛ ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضا عادلا مستنيرا ؛ ويتحاكم فى القضية التى يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمير ، فتبدو كلها متساندة فى صفه وفى صف قضيته ، بلا تمحل ولا اعتساف فى مقدمة أو نتيجة . وتلك مزية الكتاب الأولى .

إنه يبدأ فيرسم صورة سريعة — ولكنها واضحة — لهذا العالم قبل أن تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى . يرسم الصورة لهذا العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، من

الهند والصين إلى فارس والروم ، صورة المجتمع وصورة الضمير فى هذه الدنيا العريضة ، فى الجماعات التى تظلها الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية ، والتى تظلها الديانات الوثنية كالهندوكية والبوذية والزرادشتية ... وما إليها ...

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفا بينا ، لا يعتسف المؤلف فيه ، ولا يستبد به ، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين ، ممن يدينون بغير الإسلام ؛ فلا شبهة فى أن يكونوا مغرضين له ، وللدور الذى أداه فى ذلك العالم القديم .

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية ، ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التى كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت طقوسا جامدة لا حيـــاة فيها ولا روح ؛ وبخاصة المسيحية .

. . . فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم فى جاهليته هذه بدأ يعرض دور الإسلام فى حياة البشرية . دوره فى تخليص روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال . ودوره فى تخليص المجتمع الإنسانى من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانهيار ، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان ، ودوره فى بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ؛ ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان ، والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة .

كل أولئك فى إبان الفترة التى كانت القيادة فيها للاسلام فى أى مكان ، والتى كان الإسلام فيها يعمل وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة ، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء ، ومنهج قيادة ، وشرعة ابتداع لا اتباع .

ثم تجىء الفترة التى فقد الإسلام فيها الزمام ، بسبب انحطاط المسلمين ، وتخليهم عن القيادة التى يفرضها عليهم هذا الدين ، والوصاية التى يكلفهم بها على البشرية ، والتبعات التى ينوطها بهم فى كل اتجاه .

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية ، ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادىء دينهم ، ونكصوا عن تبعاتهم ، وما نزل بالعالم

كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة ، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى ، ويرسم خط الانحدار الرهيب الذى ترتكس فيه الإنسانية فى ذات الوقت الذى تفتح فيه آفاق العلم الباهرة . يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص ، لا بالجمل النارية والتعبيرات المجنحة فالحقائق الواقعة كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق .

ومن خلال هذا الاستعراض يحس القارىء بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية ، وردها إلى الهدى الذى انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى المعرفة ، ويشعر بالقيمة الكلية لوجود هذه القيادة فى الأرض ، وبمدى الخسارة التى حلت بالبشر جميعاً ، لا بالمسلمين وحدهم فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل القريب والبعيد . .

كذلك يثور فى نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم على ما فرط ، وروح الاعتزاز بما وهب ، وروح الاستشراف إلى القيادة التى ضيع

ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائما عن النكسة التى حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة « الجاهلية »

وهو تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام ، والروح المادى الذى سيطر على العالم قبله ، ويسيطر عليه اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة ... إنها « الجاهلية » فى طبيعتها الأصلية ، فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة ، ولكنها طابع روحى وعقلى معين ، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية كما أرادها الله ، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة وهذا ما تعانيه البشرية اليوم فى حالة الارتقاء الأولى ، كما كانت تعانيه من قبل فى أيام البربرية الأولى .

« فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر ، وجائزته هى الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . وقد ظهر فضل هذه الرسالة ، وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية ، وبدت سوأتها للناس ، واشتد تذمر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، لو نهض العالم الإسلامى ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال » ... كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب .

وأخيراً فإن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل ، وهو لهذا يعد نموذجاً لا للبحث الدينى والاجتماعى فحسب ، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية .

لقد مضى الأوربيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية ، متأثرين بثقافاتهم المادية ، وفلسفتهم المادية ، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية — شعروا بذلك أم لم يشعروا — ومن ثم وقعت فى تاريخهم أخطاء وانحرافات ، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة فى هذه الحياة ، لايستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها ؛ ونتيجة عصبيتهم التى تجعل أوربا فى نظرهم هى محور العالم ومركزه دائماً ولإغفالهم العوامل الأخرى التى أثرت فى تاريخ البشرية ، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوربا .

ولقد درجنا نحن على أن نتلقف التاريخ من أيدى أوربا كما نتلقف كل شىء آخر . نتلقفه بأخطائه تلك ، وهى أخطاء فى المنهج بإغفال قيم كثيرة وعوامل كثيرة ، وأخطاء فى التصوير نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية ، وأخطاء فى النتائج تبعاً للأخطاء المنهجية والتصورية .

وهذا الكتاب الذى بين يدىّ نموذج للتأريخ الذى ينظر للأمور كلها ، وللعوامل جميعها ، وللقيم على اختلافها . ولعل القارىء لم يكن ينتظر من رجل مسلم ، واثق بقوة الروح الإسلامى ، متحمس لرد القيادة العالمية إليه ، أن يتحدث عن مؤهلات القيادة ، فلا ينسى بجوار « الاستعداد الروحى » أن يلح فى « الاستعداد الصناعى والحربى » و « التنظيم العلمى الجديد » وأن يتحدث عن « الاستقلال التجارى والمالى » .

إنه الإحساس المتناسق بكل مقوّمات الحياة البشرية ، وبهذا الإحساس المتناسق سار فى استعراضه التاريخى ، وفى توجيهه للأمة الإسلامية سواء . ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتأريخ كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثر بالطريقة الأوربية ، التى ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق .

وإنه ليسعدنى أن أتحدث عن هذا الكتاب بذلك الإحساس ذاته ، وأن أسجل هذه الظاهرة وأنا مغتبط بهذه الفرصة التى أتاحت لى أن أطلع عليه فى العربية . . اللغة التى آثر صاحبه أن يكتبه بها ، وأن ينشره فى مصر للمرة الثانية : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

سيد قطب

صورة وصفية :

أخى أبو الحسن !...

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى

لقيت أخى أبا الحسن أول مرة فى شتاء سنة ١٩٥١ م ، بدار (الشبان المسلمين) فى القاهرة ، عقب محاضرة لى من محاضرات الثلاثاء ، وقد أقبل علىَّ يطلب فى أدب جم وتواضع ظاهر ليلة من ليالى الثلاثاء ؛ ليلقى فيها محاضرة عن « المسلمين فى مفترق الطرق » . . . فرأيت رجلا نحيف البدن نحيل العود ، له لحية طويلة سمراء ، وملابسه قليلة خفيفة الوزن والثمن ، ونظراته عميقة نفاذة ، ونبراته دقيقة أخاذة ، فيها بُحة عرفت فيما بعد أنها ملازمة له من جهد وإجهاد ؛ وبعد اللقاء الأول العاجل توثقت بينى وبينه أسباب الأخوة والمحبة ؛ وعن خُبر به أكتب هذه السطور :

هو العالم المؤمن الداعية المحتسب السيد أبو الحسن على الحسنى الهندى الندوى ، من المنتسبين إلى عترة الحسن بن على رضوان الله عليهما ، ووالده هو الشريف العلامة عبد الحى بن فخر الدين بن عبد العلى ، ينتهى نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذى النفس الزكية ابن عبد الله المحصن ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب ، ولوالده كتب كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط ، وقد توفى سنة ١٣٤١ هجرية .

وقد وُلد السيد أبو الحسن فى مديرية بالهند تسمى « راى بريلى » وهى تبعد عن « لكهنؤ » سبعين كيلومتراً تقريباً ، وكانت الولادة بقرية « تكية » فى شهر المحرم سنة ١٣٣٢ هـ ، فهو الآن فى الثامنة والثلاثين من عمره ، مدَّ الله له فيه وأدام به نفع الإسلام والمسلمين ... وأسرة أخى أبى الحسن من أصل عربى ، تحافظ على أنسابها المعروفة إلى القرن السادس ، وهى تحافظ على صلاتها بأصلها وإن كانت تتكلم الهندية ، وتعيش فى الهند منذ قرون ، وهى متوسطة الحال من الناحية المادية ، ولها أملاك لا بأس بها . وللسيد أبى الحسن أخ أكبر منه هو السيد الدكتور عبد العلى عبد الحى ، وهو طبيب ويدير ندوة العلماء خلفا لأبيه الراحل ؛ وقد تزوج السيد أبو الحسن منذ عشر سنوات من نفس الأسرة ، لأن هذا تقليد محترم يعاقَب من يخرج عليه .

بدأ السيد أبو الحسن تعلمه بحفظ القرآن الكريم فى البيت ، ثم تعلم اللغتين الأوردية والفارسية ، ثم بدأ وهو فى الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معا ، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليمنى ، وتوفر سنتين كاملتين على

دراسة الأدب العربى وحده ، وقرأ كثيراً من كتب الأدب ، وشغف بها على خلاف العادة يومئذ فى الهند ، لأنهم يزهدون فى الأدب العربى ، وعُنى عناية خاصة بالعكوف على كتب ثلاثة هى : نهج البلاغة ودلائل الإعجاز والمقامات ؛ ثم التحق بجامعة لكهنؤ ، وهى جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية ، وفيها قسم لآداب اللغة العربية التحق به السيد أبو الحسن ، وكان يومئذ أصغر طلاب الجامعة سناً ، وضاق بدروس القواعد أولا فأخره ذلك قليلا ، ثم سار فى تعلمه ممتازاً فائقاً سابقا . ثم أتم دراسته الأدبية على الدكتور الشيخ تقى الدين الهلالى الراكشى رئيس تدريس الأدب العربى فى ندوة العلماء — وهى جمعية تشرف على دار العلوم هناك — ، ثم دخل الندوة ومكث بها سنتين يدرس علوم الحديث ، واستفاد كثيرا من شيخ الحديث الشيخ حيدرحسن خان .

ثم سافر إلى لاهور ، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد على المفسر المشهور ، ولم تكن دراسته فى أغلب أدوارها دراسة نظامية بشهادات ، بل كانت دراسة حرة لوجه العلم والمعرفة ؛ ولما أتم دراسته رجع إلى لكهنؤ ، وعين مدرسا فى دارالعلوم هناك ، ومكث فيها عشر سنوات يدرس علوما مختلفة ، واشتغل بجوارذلك بالكتابة فى مجلة «الضياء» العربية التى تصدرها ندوة العلماء ، ورئيس تحريرها الأستاذ سعيد الندوى ؛ واشتغل كذلك بالتأليف فى الأوردية ، وأظهر كتابه « سيرة الشيخ أحمد الشهيد » فكان الإقبال عليه عظيما حتى طبع ثلاث مرات .

ثم انتقل إلى دلهى ، والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس ، وكان هذا اللقاء نقطة تحول فى حياة أبى الحسن ، لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشداً شعبيا ، له صلة عميقة وثيقة بالجماهير عن طريق الدعوة إلى الله ، وأبو الحسن لم يكن متصلا بالشعب قبل ذلك ، بل كان مقتصرا على الدراسة والتأليف ، فأخذ يتصل بأهل القرى والدساكر ، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهراً ، لنشر الدعوة فى قرى الهند ومدنها ، وكان الشيخ إلياس هو مثَل أبى الحسن الأعلى فى ذلك الميدان ، لأن الشيخ إلياس كما يقول أخونا كان صورة من السلف الصالح ، وكان مخلصا غيورا ، يتألم لحال المسلمين ويعمل من أجلهم ، ويسير فى شئونهم ، ويحترق بروحه القوية الوثابة فى سبيلهم ! .

ورأس أبو الحسن تحرير مجلة « الندوة العلمية » التى كانت تصدر بالأوردية وكانت لسان حال الندوة ، وكافته الجامعة الإسلامية فى (عليكرة) بوضع منهاج لطلبة (البكالوريا) فى التعليم الدينى ، فألف فى ذلك كتاباً أسماه « إسلاميات » وقبلت

الجامعة هذا الكتاب وأخذت به ، وكافأت صاحبه عليه ؛ ودعى لإلقاء محاضرات في الجامعة الملية الإسلامية بدلهى ، فألقى محاضرة فى موضوع : (الدين والمدنية) كانت موضع الاستحسان ، ونشرت فكان لها تأثير واسع النطاق .

وألف فى هذه الفترة كتبا لطلبة المدارس العربية فى الهند ، منها كتاب « مختارات فى الأدب العربى » وقد قررت دار العلوم فى الهند وجامعة (إلاهاباد) تدريسه ، ومنها كتاب « قصص النبيين » فى ثلاث أجزاء ، وغير ذلك من الكتب ؛ وأصدر مجلة « التعمير » التى تصدر بالأوردية مرتين فى الشهر ، ولا تزال تصدر حتى الآن ، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس ، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك .

وأخى المفضال أبو الحسن له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها ، وأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه ، وأغلى ما يهدى إليه كتاب يرضيه ويغذيه ، ولا يقتنى أبو الحسن الكتب ليزين بها داره ، بل ليهضمها قراءة وبحثاً ونقداً ، وكتاباته المختلفة فيها دلائل واضحة على ذلك . وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات — بجوار الهبة والتجربة — قدرة على الارتجال بالعربية ، فهو يتدفق فيها كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل ، وأغلب محاضراته يستعد لها ، وكثيراً ما يكتبها ، وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفى الملتهب ، ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضاً ، وهو كما عرفت عنه وكما حدثنى مراراً لا يحب أن يهجم على الحديث فى موضوع ذى بال إلا إذا احتفل به وتهيأ له ، وليس ذلك عن قلة بضاعة ، ولكنه احتراس العالم الذى يريد أن يستيقن ويتثبت ! . وقد غلب النثر على أبى الحسن فلم تطاوعه قريحته يوما على نظم الشعر . . .

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس جانباً من الألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والصيد (والهوكى والتنس) ثم انقطع عنها أخيراً ، وعلى الرغم من هذا فقد أصابته أمراض استمرت مدة طويلة ، وخاصة فى الصدر ، ثم عافاه الله منها ، وبقى له سعال يعاوده من حين لآخر .

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه ، ويحرمه على نفسه فى تشديد ملحوظ ، ولقد زرت معه إحدى دور الطبع والنشر الكبرى بمصر ، ورغب مصور الدار أن يلتقط لنا صوراً تذكارية ، فرفض أبو الحسن ، وأصر على الرغم من طول المحاولة والرجاء ، وذكر أن المسلمين فى الهند (متفقون) على حرمة التصوير .

ولقد سألته ذات مرة عن السابقين الذين تأثر بهم ، فأجابنى بأنهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب الموقف المعروف فى المحنة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ أحمد السرهندى (من سر هند ، بلد فى البنجاب) المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ وصاحب الرسائل الخالدة فى الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع والمجدد للملة ، والشيخ ولى الله الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦ هـ الباحث الإسلامى العظيم والحجة الثقة ، والسيد أحمد الشهيد المجتهد ومؤسس أول دولة شرعية فى الهند فى القرن الثالث عشر الهجرى ؛ وقد استمرت هذه الدولة عدة شهور ، ثم ثار عليها الإنجليز بمؤامراتهم فأخذوا عليها الطريق .

وأعظم آمال أبى الحسن أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة حتى يسلى نفسه ويستبشر ، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين ؛ وهو يعتقد أن نقطة البدء فى نهضة الإسلام ستكون من الباكستان أو تركيا ! . ويرى أن بقاء القلة المسلمة فى الهند من الخير ، وفيه فائدة ترجى للهند ، فلعل للاسلام مستقبلا ذا بال هناك .

ولقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز فى سنتى ١٩٤٧ ، ١٩٥٠ م وقدم إلى مصر سنة ١٩٥١ م ، وطوف بأغلب العالم الإسلامى ، فرأى وشاهد ، ودرس وكتب ، وحاضر وخطب ، وكان له فى كل أرض نزل بها مجهود وجهود وعهود .

وقد سألته وهو بيننا فى مصر عن حسنات مصر فقال موجزاً : الإيمان بالله والدين ، والمحبة للمسلم وخاصة إذا كان غريباً ، ورقة القلب وسلامة الصدر ، وكثرة الأعمال المنتجة .. ثم سألته عن السيئات فتحرج ثم أجاب : السفور وعدم التستر ، والصور الخليعة فى الصحف والمجلات ، واستهانة بعض العلماء ببعض الحرمات ، وعدم المحافظة على الجماعات فى المساجد برغم كثرتها ، والاندفاع فى تقليد الحضارة الغربية بلا تبصر .

وأخى أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة ، يتخفف فى ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة ، ولا يقيم المال وزنا فى حياته ، وثقته بربه فوق كل شىء ، ومثابرته على النضال فى سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق سر نجاحه بينما يفشل الآخرون .

لقد طال الكلام ، ومع ذلك لم أقل كل شىء عن أخى أبى الحسن ! .

القاهرة فى { شوال سنة ١٣٧٠ هـ / أغسطس سنة ١٩٥١ م }

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

لم يكن انحطاط المسلمين أولاً وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، وانسحابهم عن ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادِثاً من نوع ما وقع وتكرر فى التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاتحين ، وانهزام الغزاة المنتصرين ، وتقلص ظل المدنيات ، والجزر السياسى بعد المد ، فما أكثر ما وقع مثل هذا فى تاريخ كل أمة ، وما أكثر أمثاله فى تاريخ الإنسان العام ، ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له فى التاريخ ، مع أن فى التاريخ مثيلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخصُّ العرب وحدهم ، ولا يخصُّ الشعوب والأمم التى دانت بالإسلام ، فضلا عن الأسر والبيوتات التى خسرت دولتها و بلادها ، بل هى مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها ، فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيته ؛ وانكشف عنه غطاء هذه العصبية لاتخذ هذا اليوم النحس — الذى وقعت فيه — يوم عزاء ورثاء ونياحة و بكاء ، ولتبادلت شعوب العالم وأممه التعازى ، ولبست الدنيا ثوب الحداد . ولكن ذلك لم يتم فى يوم ، وإنما وقع تدريجياً فى عقود من السنين ، والعالم لم يحسب إلى الآن الحسابَ الصحيح لهذا الحادث ولم يقدره قدره ، وليس عنده القياس الصحيح لشقائه وحرمانه .

إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر ، وفتحت مجموعا من البلاد والأقاليم ، واستعبدت طوائف من البشر ، ونعمت وترفّهت على حساب الضعفاء والمحكومين . وإن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه ، أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها فى الجور والاستبداد وحكم الإنسان للانسان . وإن هذا الكون لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدركها الهرم وسرى فيها الوهن ، وسقوط دولة تأكّلت جذورها وتفككت أوصالها ؛ بل بالعكس تقتضى ذلك سنة الكون ، وإن دموع الإنسان لأعزُّ من أن تفيض كل يوم على مُلْك راحل وسلطان زائل ، وإنه لفى غنى وإنه لفى شغل عن أن يندب من لم يعمل يوما لإسعاده ، ولم يكدح ساعة لصالحه ، وإن السماء والأرض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التى تقع ووقعت كل يوم ووقت ألوف المرات (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) .

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلاًّ على ظهر الأرض ، وويلا للنوع الإنسانى ، وعذابا للأمم الصغيرة والضعيفة ، ومنبعَ الفساد والمرض فى جسم المجتمع البشرى ، يسرى منه السم فى أعضائه وعروقه ، ويتعدى المرض إلى الجسم السليم ، فكان لا بد من عملية جراحية ، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين ورحمته ، يستوجب الحمد والامتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية ، بل من جميع أفراد هذا الكون (فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ) ، ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم — وهم حَمَلة رسالة الأنبياء ، وهم للعالم البشرى كالعافية

للجسم الإنسانى — انحطاط شعب أو عنصر أو قومية ، فما أهون خطبه وما أخف وقعه ، ولـكنه انحطاط رسالة هى للمجتمع البشرى كالروح ، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا .

فهل كان انحطاط المسلمين واعتزالهم فى الواقع مما يأسف له الإنسان فى شرق الأرض وغربها ، و بعد قرون مضت على الحادث ؟ .

وهل خسر العالم حقاً — وهو غنىٌّ بالأمم والشعوب — بانحطاط هذه الأمة شيئاً ؟ وفيم كانت خسارته ورزيته ؟ .

وماذا آل إليه أمر الدنيا ، وماذا صارت إليه الأمم بعد ما تولت قيادها الأمم الأوربية التى خلَفت المسلمين في النفوذ العالمى ، وأسست دولة واسـعة على أنقاض الدولة الإسلامية ؟ وماذا أثر هذا التحوال العظيم فى قيـادة الأمم وزعامة العالم فى الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامة وفى مصير الإنسانية ؟

وكيف يكون الحال لو نهض العالم الإسلامى من كبوته ، وصحا من غفوته ، وتملك زمام الحياة ؟

ذلك كله ما نحاول الإجابة عنه فى الصفحات الآتية !

أبو الحسن على الحسنى

الباب الأول

العصر الجاهلى

الفصل الأول

الإنسانية فى الاحتضـــار

كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحطّ أدوار التاريخ بلا خلاف؛ فكانت الإنسانية متدلّية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردّى، وقد زادتها الأيام سرعة فى هبوطها، وشدة فى إسفافها، وكان الإنسان فى هذا القرن قد نسى خالقه، فنسى نفسه ومصيره وفقد رشده، وقوةَ التمييز بين الخير والشر، والحسَن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التى أوقدوها قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم أو بقيت، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلا عن البيوت فضلا عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً بدينهم من الفتن، وضنًّا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفراراً من تكاليف الحياة وجدِّها، أو فشلا فى كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقى منهم فى تيَّار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل . . .

نظرة فى الأديان والأمم :

أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعِث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشُغِلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشْرعاً صافياً من الدين السماوى ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشرى .

المسيحية فى القرن السادس المسيحى :

لم تكن المسيحية فى يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ، ومعالجة مسائل الإنسان بحيث تقوم عليه حضارة ، أو تسير فى ضوئه دولة ، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس فطمس نورها وطعَّمها بخُرافات الجاهلية التى انتقل منها ، والوثنية التى نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية ، والأفلاطونية المصرية والرهبانية ، اضمحلت فى جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة فى اليم ، وعادت نسيجاً خشيباً من معتقدات وتقاليد لا تغَذِّى الروح ، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ، ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين ، وتأويل الجاهلين ، تحول بين الإنسان والعلم والفكر ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية ، يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانجليزية عن نصارى القرن السادس الميلادى : « وأسرف المسيحيون فى عبادة القديسيين والصور المسيحية ، حتى فاقوا فى ذلك الكاثوليك[1] » .

---

(١) Sale's Translation P. 62 (1896) .

الحرب الأهلية الدينية فى الدول الرومية :

ثم ثارت حول الديانة وفى صميمها مجادلات كلامية ، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة ، واستهلكت ذكاءها ، وابتلعت قدرتها العملية ، وتحوّلت فى كثير من الأحيان حروباً دامية ، وقتلا وتدميراً وتعذيباً ، و إغارة وانتهاباً واغتيالا، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية منافسة ، وأقحمت البلاد فى حرب أهلية ؛ وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الدينى ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، و بين نصارى مصر ، أو بين (الملكانية) (والمنوفسية) بلفظ أصح ، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة ، وهى الإلهية التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية ، كقطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له . وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين فى القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى إنها ليست على شىء . يقول الدكتور الفرد . ج . بتلر :

« إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى — كما يدل عليه اسمها — حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهى ازدواج طبيعة المسيح . على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسيين — أهل مصر — كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل [١] » .

---

(١) فتح العرب لمصر تعريب محمد فريد أبو حديد ص ٣٧ — ٣٨ .

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ جمعَ مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة ، أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحدٌ . وفى صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوثيلى مذهباً رسميا للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة له متوسلا إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا فى سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى ، وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا فى مناظراتها ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقى ، ولكن الرسالة لم تُهدئ العاصفة فى مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس فى مصر استمر عشر سنين ، وقع فى خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذَّبون ثم يقتلَون إغراقا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ، ويوضع السجين فى كيس مملوء من الرمل ويرمى به فى البحر ، إلى غير ذلك من الفظائع .

الانحلال الاجتماعى والقلق الاقتصادى :

بلغ الانحلال الاجتماعى غايته فى الدولة الرومية الشرقية ، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ، ويمقتونها مقتاً شديداً ، ويفضّلون عليها كل حكومة أجنبية ، وكانت الإيجارات والصادرات ضغثاً على إبّالة ، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ فى الاضطراب ثلاثون ألف شخص فى العاصمة [1] ، وعلى شدة

---

(١) Encyclopeadia Britanica. See Justin

الحاجة إلى الاقتصاد فى الحياة أسرف الناس فيه ، ووصلوا فى التبذُّل إلى أحطِّ الدركات ، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أىّ وجه ، ثم إنفاقه فى التظرف والترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أُسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضِّلون حياة العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم فى حرية[1] ، وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السِّلَع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع[2] يقول (جيبون) و « فى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى تردِّيها وهبوطها إلى آخر نقطة[3] ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يَزداد كل يوم إلا ذبولا[4] » .

ويقول مؤلفو تاريخ العالم للمؤرخين : « إن المدن العظيمة التى أسرع إليها الخراب ، ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً ، تشهد بما أُصيبت به الدولة البيزنطية فى هذا العهد من الانحطاط الهائل الذى كانت نتيجة المغالاة فى المكوس والضرائب والانحطاط فى التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران فى البلدان[5] » .

مصر فى الدولة الرومية ديانة واقتصاداً :

أما مصر ذات النيل السعيد ، والخصب المزيد ، فكانت فى القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية ، وبالدولة الرومية معاً ، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات فى طبيعة المسيح ، وفى فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية . وقد ظهرت فى القرن السابع فى شر مظاهرها ، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية ، وأما الأخرى فلم تلق إلا اضطهاداً دينياً فظيعاً واستبداداً

---

(١) The History of Decline and Fall of the Roman Empire by Edward Gibbon, V.

(٢) Sale's Translation p. 72 (1896)

(٣، ٤) the History of the Decline and Fall of the Roman Empire. v. V d. 31.

(٥) Historian's History of the World v. VII p. 175.

سياسياً شنيعاً تجرعت فى سبيلهما من المرائر فى عشر سنين ما ذاقته أوربا فى عهد التفتيش الدينى فى عقود من السنين ، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح ، فلا هى تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية ، ولاهى تتمتع بالحرية الدينية والعقلية ، رغم كونها نصرانية .

يقول الدكتور غوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) :

ولقد أُكرهت مصر على انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التى كانت مسرحا للاختلافات الدينية الكثيرة فى ذلك الزمن ، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات ، وكانت مصر التى أكلتها الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين [١] .

ويقول الدكتور ألفرد . ج . بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) :

« فالحق أن أمور الدين فى القرن السابع كانت فى مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة ، فلم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الأحزاب ، واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس مايعينهم على العمل الصالح ، بل كان الدين فى نظرهم هو الاعتقاد المجرد فى أصول معينة .

« فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات ؛ وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لا قيمة لها ، وفى سبيل فروق فى أصل الدين وفى فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ، ويشق إدراكها [٢] » .

---

(١) حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، الفصل الرابع « العرب فى مصر » ص ٣٣٦ .
(٢) فتح العرب لمصر ، ص ٤٧ .

هذا ، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها ، و يمتصوا دمها ، يقول ألفرد :

« إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد . . . مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل (١) »

و يقول مؤلفو « تاريخ العالم للمؤرخين » :

« إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعا كبيراً من حاصلها ومنتجاتها ، وكانت طبقات الفلاحة المصرية — مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ — مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب ، وكانت ثروة مصر فى هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط (٢) » .

وهكذا أجتمع لمصر من الاضطهاد الدينى ، والاستبداد السياسى والاستغلال الاقتصادى ما شغلها بنفسها ، وكدر عليها صفو حياتها ، وألهاها عن كل مكرمة .

الحبشة :

أما جارتها الحبشة فكانت على المذهب « المونوفيسى » كذلك ، وكانت مع ذلك تعبد أوثاناً كثيرة استعارت بعضها من الهمجية ؛ ولم يكن التوحيد إلا ضربا راقياً من الوثنية خلعت عليها لباساً من علم ومصطلحات نصرانية ، ولم تكن فى الدين ذات روح ، ولا فى الدنيا بذات طموح ، وقد قضى مجمع « نيقية » أن ليس لها استقلال بأمورها الدينية ، و إنما هى تابعة للكرسى الاسكندرى .

الأمم الأوربية الشمالية الغربية :

أما الأمم الأوربية المتوغلة فى الشمال والغرب فكانت تتسكع فى ظلام الجهل

---

(١) المصدر السابق .

(٢) Historian's History of the World v. VII p. 173.

المطبق والأمية الفاشية ، والحروب الدامية ، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد ، ولم تظهر على مسرحها الأندلس العربية الإسلامية لتؤدى رسالتها فى العلم والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث ، وكانت بمعزل عن جادَّة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها ، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلا ، ولم تكن — مما يجرى فى الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ — فى عير ولا نفير ؛ وكانت بين نصرانية وليدة ، ووثنية شائبة ، ولم تكن بذات رسالة فى الدين ، ولا بذات راية فى السياسة ، يقول هـ . ج . ويلز :

« ولم تكن فى أوربا الغربية فى ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام[1] » .

اليهود :

وكانت فى أوربا وآسيا وإفريقيا أمة أغنى أمم الأرض مادة فى الدين ، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه ، أولئك هم اليهود ، ولكن لم يكونوا عاملا من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر فى غيرهم ، بل قُضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد ، والنفى والجلاء ، والعذاب والبلاء ، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية ، والإدلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال ، وتعاطى الربا ؛ أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد فى أمة ، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق فى عامة الأحوال ، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصدُّ عن سبيل الله ، وقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً عميقاً يصوِّر ما كانوا عليه فى القرن السادس والسابع من تدهور خلقى ، وانحطاط نفسى ، وفساد اجتماعى عُزِلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم .

(١) A. Short History of the World by H. G. Wells.

بين اليهود والمسيحيين :

وقد تجدّد فى أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين ، وبغّض المسيحيين إليهم وشوّه سمعتهم ، ففى السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل الامبراطور قائده « أبنوسوس » ليقضى على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعاً ، قتلا بالسيف ، وشنقاً وإغراقاً ، وإحراقاً وتعذيباً ، ورمياً للوحوش الـكاسرة .

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة . قال المقريزى فى كتاب الخطط : « وفى أيام فوقا ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر فى طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر ، وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخرَّبوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه [1] » .

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر :

« فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور وأرسلوا بقيتهم فى بلادهم وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فـكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صـور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبَّرها على كسرى حتى رحل عنهم ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ماخربه الفرس، فخرج إليه اليهود من

(١) كتاب الخطط المقريزية ج ٤ ص ٣٩٢ .

طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً، فساءه ذلك وتوجّع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسّنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى الخ » .

وبهذه الروايات يُعلم ما وصل إليه الفريقان اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنسانى وتحين الفرص للنكاية فى العدو ، وعدم مراعاة الحدود فى ذلك . وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدى رسالة الحق والعدل والسلام ، وتسعد البشرية فى ظلها وتحت حكمها .

إيران والحركات الهدامة فيها :

أما فارس التى شاطرت الروم فى حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم ، كان أساس الأخلاق متزعزعاً مضطرباً منذ عهد عريق فى القدم ، ولم تزل المحرمات النَّسَبية التى تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش ، حتى إن يزد جرد الثانى الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بنته ثم قتلها[1] ، وأن بهرام جوبين الذى

---

(١) Historian's History of the World. v. 8 . p. 84.

تملك فى القرن السادس كان متزوجاً بأخته[١] ، يقول البروفسور ارتهر كرستن سين أستاذ الألسنة الشرقية فى جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص فى تاريخ إيران فى كتابه « إيران فى عهد الساسانيين » :

« إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساسانى مثل « جاتهياس » وغيره يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات ، ويوجد فى تاريخ العهد الساسانى أمثلة لهذا الزواج ، فقد تزوج بهرام جو بين وتزوج جشتسب قبل أن يتنصر بالمحرمات[٢] ، ولم يكن يُعَد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملا صالحاً يتقربون به إلى الله ولعل الرحالة الصينى « هوئن سوئنج » أشار إلى هذا الزواج بقوله إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء »[٣] .

ظهر « مانى » فى القرن الثالث المسيحى ، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبعى ضد النزعة الشهوية السائدة فى البلاد ، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه ، فحرَّم النكاح استعجالا للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل ، وقتله بهرام سنة ٢٧٦ قائلا إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شىء من مراده ، ولكن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم مانى المجحفة ، وتقمصت دعوة مزدك الذى ولد ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، فينبغى أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك قال الشهرستانى[٤] : « أحل

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٨ .
(٢) إيران فى عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩ .
(٣) « إيران فى عهد الساسانيين » ص ٤٣٠ .
(٤) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٨٦ .

النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ »
وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ قباذ بناصرها ونشط فى نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها فى الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات قال الطبرى : « افترص السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك الرجل شيئاً مما يتسع به[1] » .
إلى أن قال : « ولم يزل قباذ من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور[2] » .

تقديس الأكاسرة :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم إلهى ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن فى طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً ، فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، لا يجرى اسمهم على لسانهم ولا يجلس أحدهم فى مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق وليس للناس قِبَلهم إلا السمع والطاعة ، وخصصوا بيتاً معيناً وهو البيت الكيانى فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج ، وهذا الحق ينتقل فيهم كابرا عن كابر وأبا عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعى نذل ، فكانوا يدينون بالملك و بالوراثة فى البيت المالك لا يبغون به بدلا ولا يريدون

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق .

عنه محيصاً ، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملّكوا عليهم طفلا ، وإذا لم يجدوا رجلا ملكوا عليهم امرأة ، فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أردشير وهو ابن سبع سنين وملك فرخ زاد خسرو بن كسرى أبرويز وهو طفل وملكوا بوران بنت كسرى ، وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها ازرمى دخت[1] ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً أو رئيساً من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكى .

التفاوت بين الطبقات :

وكذلك اعتقادهم فى البيوتات الروحية والأشراف من قومهم ، فيرونهم فوق العامة فى طينتهم ، وفوق مستوى الناس فى عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لاحدّ لها ويخضعون لهم خضوعا كاملا — يقول البروفسور ارتهرسين مؤلف تاريخ « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان المجتمع الإيرانى مؤسسا على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة[2] وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير[3] ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه[4] ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة[5] غير الحرفة التى خلقه الله لها[6] ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم[7] ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا ، وكان لكل واحد مركز محدَّد فى المجتمع »[8] .

وكان فى هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر لك جليا فى مجالس

---

(١) راجع تاريخ الطبرى ج ٢ وتاريخ إيران لمكاريوس .
(٢) « إيران فى عهد الساسانين » ص ٥٩٠
(٣) أيضاً ٤٢٠ .
(٤) أيضاً ص ٤١٨ .
(٥) أيضاً ص ٤١٨ .
(٦) أيضاً ص ٤٢٢ .
(٧) أيضا ص ٤٢٢ .
(٨) إيران فى عهد الساسانيين ص ٤٢٢ .

الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رءوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلاب ، وقد أكبره رسول المسلمين وأنكره ، ويتبين مما روى الطبرى ما وصل إليه الفرس من الاستكانة والخضوع لسادتهم وجريا على عاداتهم ، قال :

« عن أبى عثمان النهدى قال لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم فى إجازته ، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقوية لتهاونهم فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبُسُطهم على غلوة ، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول[1] » .

تمجيد القومية الفارسية :

ثم يبالغون فى تمجيد القومية الفارسية ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصَّها بمواهب ومِنَح لم يشرك فيها أحداً ، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، و يلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية .

عبادة النار وتأثيرها فى الحياة :

كانوا فى الزمن القديم يعبدون الله و يسجدون له ، ثم جعلوا يمجدون الشمس

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٠٨ .

والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرهم من الأوائل ، وجاء زرادشت صاحب الديانة الفارسية فيقال إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام ، وقال إن نور الله يسطع فى كل ما يشرق ويلتهب فى الكون ، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإله ، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهى : النار والهواء والتراب والماء ، وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التى تستلزم النار ، فاقتصروا فى أعمالهم على الفلاحة والتجارة ، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة فى العبادات تدرَّجَ الناس إلى عبادتها ، حتى صاروا يعبدونها عينا ويبنون لها هيا كل ومعابد ، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجُهِلت الحقيقة ونُسى التاريخ[١] .

ولما كانت النار لا توحى إلى عبادها بشريعة ولا ترسل رسولا ، ولا تتدخَّل فى شئون حياتهم ، ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدُّونها فى أمكنة خاصة فى ساعات خاصة . أما فى خارج المعابد ، وفى دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفى السياسة والاجتماع ، فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم ، وما تملى عليهم نفوسهم ، أوما يؤدى إليه تفكيرهم ، أوما توحى به مصالحهم ومنافعهم ، شأن المشركين فى كل عصر ومصر .

وهكذا حُرِمَت الأمة الفارسية فى حياتها ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس ، وتهذيباً للخلق ، وقامعاً للشهوات ، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات ، ويكون نظاماً للأسرة وتدبيراً للمنزل ، وسياسة للدولة ، ودستوراً للأمة ، ويحول بين الناس وطغيان الملوك ، وعسف الحكام ، ويأخذ على يد الظالم ، وينتصف للمظلوم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين ، فى الأخلاق والأعمال .

الصين ، دياناتها ونظمها :

وكانت تسود الصين فى هذا القرن ثلاث ديانات ديانة « لادتسو » وديانة

---

(١) انظر تاريخ إيران تأليف شاهين مكاريوس ص ٢٢١ — ٢٢٤

« كونفوشيوس » والبوذية ، أما الأولى ففضلا عن أنها تحولت وثنية فى عهد قريب فهى تُعْنَى بالنظريات أكثر منها بالعمليات ، وكان أتباعها متقشفين زاهدين ، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالا ، فلم يكن لها أن تكون أساً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة ، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره .

وأما (كونفوشيوس) فقد كان يعنى بالعمليات أكثر من النظريات ، ولكن انحصرت تعاليمه فى شئون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية الإدارية ، وقد كان أتباعه لا يعتقدون — فى بعض الأزمنة — بعبادة إله معين ، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار ، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوى ، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير ، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء .

البوذية — تطوراتها وانحطاطها :

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها ، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت ونزلت ، وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التى ظهرت فى عهد ازدهار البوذية[١] . يقول الأستاذ « ايشورا توبا » أستاذ تاريخ الحضارة الهندية فى إحدى جامعات الهند : « لقد قامت فى ظل البوذية دولة تُعَنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل ، وتغيَّر محيط الرابطات الأخوية البوذية ، وظهرت فيها البدع »[٢] .

ولاحظ ذلك أيضاً أحد الكتاب العصريين ، وكبار السياسيين فى الهند فقال :

« جعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة . وقلَّدتها فى ذلك البوذية نفسها، وأصبحت

---

(١) الزائر لمتحف تكسلا فى غربى بنجاب (باكستان) يندهش من رؤية كثرة التماثيل البوذية التى استخرجت من حفائر المدن البوذية المطمورة ويعرف أن هذه الديانة والمدنية أصبحتا وثنتين تماما .

(٢) الهند القديمة (أردو) للأستاذ إيشوراتوبا .

الرابطات الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة ، وأصبحت مركزاً لمصالح جماعة خاصة ، وفقدت النظام ، وتسرَّب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام ، و بدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعد ماسادت فى الهند وازدهرت ألف سنة ، وقد ذكرت (Mrs Rhys Davids) ما أصيبت به الديانة البوذية فى هذا العهد من الوهن والاعتلال فقالت كما نقل عنها سير رادها كرشنن فى كتابه « الفلسفة الهندية » :

« لقد أظلت الأفكار العليلة تعليم بوذا الخلقى حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهب جديد فى الديانة وازدهر ، وملك على الناس القلوب ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر، وهلم جرا ، حتى تراكمت هذه الأوهام الخلاَّبة ، وحجبت الجو وساد الظلام ، وقد اضمحلت دروس مؤسِّس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات »[١] .

لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيها العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التميز بينهما . لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيها »[٢] .

ولم يزل وجود الإله والإيمان به فى البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخى هذه الديانة ومترجمى مؤسِّسها ، حتى يحار بعضهم و يتساءل كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التى ليس فيها الإيمان بالله[٣] . فلم تكن البوذية إلا طرقا لرياضة النفس وقمع الشهوات ، والتحلى بالفضائل ، والنجاة من الألم والحصول على العلم .

إذن فلم تكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكله ، وكانوا فى أقصى شرق العالم المتمدن محتفظين بتراثهم الدينى والعلمى ، لا يزيدون فى ثروتهم ولا فى ثروة غيرهم .

---

(١) The Discovery of Inidia by P. Jawahar Lal nehru p. 201—202.

(٢) أيضاً .

(٣) اقرأ مقالة بوذا فى دائرة المعارف البريطانية .

أمم آسيا الوسطى :

أما الأمم الأخرى فى آسيا الوسطى ، وفى الشرق كالمغول والترك واليابانيين ، فقد كانت بين بوذية فاسدة ، ووثنية همجية ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظاماً سياسياً راقياً ، إنما كانت فى طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة ، ومنها شعوب لا تزال فى طور البداوة والطفولة العقلية .

الهند ؛ ديانة ، واجتماعا ، وأخلاقا :

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى ، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها فى التدهور الخلقى والاجتماعى ، الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن ، وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذى مد رواقه على المعمورة كالليل جاش فى قتمه ، وامتازت عنها فى ظواهر وخلال يمكن أن نلخصها فى ثلاث : (١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة (٢) الشهوة الجنسية الجامحة (٣) التفاوت الطبقى المجحف والامتياز الاجتماعى الجائر » .

الوثنية المتطرفة :

قد بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة فى « ويد » ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت فى هذا القرن ٣٣٠ مليون . وقد أصبح كل شىء رائع وكل شىء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يعبد . وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصرَ ، وأربت على العدِّ ، فمنها أشخاص تاريخية ، وأبطال تَمَثَّل فيهم الله — زعموا — فى عهود وحوادث معروفة ، ومنها جبال تجلّى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله ، ومنها نهر الكنج الذى خرج من رأس « مهاديو » الإله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك . وأصبحت

الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم فى زمن من الأزمان . وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل فى هـذا العهد ، وبلغت أوجها فى القرن السادس والسابع ، حتى فاق هذا العصرُ فى ذلك العصورَ الماضية . وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام ، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدا ، وتذرّعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما فى البلاد . ويدل على ما وصلت إليه الوثنية والتماثيل فى هذا العصر ما حكاه الرحالة الصينى الشهير « هوئن سوئنج » الذى قام برحلته بين عام ٦٣٠ وعام ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذى أقامه الملك هرش الذى حكم الهند من عام ٦٠٦ إلى ٦٤٧ : « أقام الملك احتفالا عظيما فى قنوج اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات السائدة فى الهند ، وقد نصب الملك تمثالا ذهبيا لبوذة على منارة تعلو خمسين ذراعا ، وقد خرج بتمثال آخر لبوذة أصغر من التمثال الأوّل فى موكب حافل قام بجنبه الملك « هرش » بمظلة وقام الملك الحليف « كامروب » يذبُّ عنه الذباب[(١)] » .

ويقول هذا الرحّالة عن أسرة الملك ورجال بلاطه إن بعضهم كان من عباد «شو» وبعضهم من أتباع الديانة البوذية ، وكان بعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد «وشنو» وكان لـكل واحد أن يخص من الآلهة أحداً بعبادته أو يعبدهم جميعاً[(٢)] .

الشهوة الجنسية الجامحة :

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم ، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل فى صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت فى صميم الديانة فى البلاد الهندية ، وقد تناقلت الـكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص

---

(١) رحلة هوئن سوئنج « فوكوى كى » الدولة الغربية .
(٢) أيضاً .

عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوتات الشريفة تستك منها المسامع ويتندّى لها الجبين حياءً ، وتأثير هذه الحكايات فى عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات فى إيمان وحماسة دينية وفعلها فى عواطفهم وأعصابهم واضح ، زِد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر « مهاديو » ، وتصويرها فى صورة بشعة ، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات ، زِد إليه كذلك ما يحدِّث به بعض المؤرخين إن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة[1] وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفُسَّاق الذين كانوا يرزؤن الراهبات والزائرات فى أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا شأن البيوت التى رُفِعت للعبادة والدين فما ظن القارىء ببلاط الملوك وقصور الأغنياء ! فقد تنافس فيها رجالها فى إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة ، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات ، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء ، هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة وأسفت أخلاق الجنسين إسفافاً كبيراً .

نظام الطبقات الجائر :

أما نظام الطبقات فلم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشد قسوة وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينياً ومدنياً ، وخضعت له آلافا من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقى فى آخر العهد الويدى بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه

---

(١) ستيارته بركاش لديانند سرسوتى الهندكى ص ٣٤٤ .

قانون مدنى وسياسى اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينيـاً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » .

يقسم هذا القـانون الأهالى إلى أربع طبقات ممتازة وهى (١) البراهمة طبقة الـكهنة ورجال الدين (٢) شترى رجال الحرب (٣) ويش رجال الزراعة والتجارة (٤) شودر رجال الخدمة . ويقول (منو) مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه وشترى من سواعده وويد من أفخـاذه والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة ، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث »[١] .

امتيازات طبقة البراهمة :

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقتهم بالآلهة فقد قال إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق ، وإن ما فى العالم هو مِلكٌ لهم فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض[٢] ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر ـ من غير جريرة ـ ما شاؤا ، لأن العبد لا يملك شيئا وكل ماله لسيده[٣] .

وإن البرهمى الذى يحفظ رك ويد « الـكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله[٤] ، ولا يجوز للملك حتى فى أشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمى

---

(١) منوشاستر الباب الأول (٢) أيضاً .
(٣) الباب الثامن . (٤) الباب التاسع .

فى بلاده أن يموت جوعاً[١] وإن استحق برهمى القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه أما غيره فيقتل[٢] .

أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين « ويش وشودر » ولكنهم دون البراهمة بكثير ، فيقول « منو » إن البرهمى الذى هو فى العاشرة من عمره يفوق الشترى الذى ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده[٣] .

المنبوذون الأشقياء :

أما شودر « المنبوذون » فكانوا فى المجتمع الهندى — بنص هذا القانون المدنى الدينى — أحطَّ من البهائم وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن « من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك[٤] وليس لهم أن يقتنوا مالا أو يدخروا كنزا فإن ذلك يؤذى البراهمة[٥] ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يدا أوعصا ليبطش به قُطعت يده ، وإذا رفسه فى غضب فُدعت رجله[٦] ، وإذا همَّ أحدٌ من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه أو يحرمه وينفيه من البلاد[٧] « وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه وإذا ادعى أنه يعلمه سُقِىَ زيتاً فائراً[٨] وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء[٩] »

مركز المرأة فى المجتمع الهندى :

وقد نزلت النساء فى هذا المجتمع منزلة الإماء[١٠] ، وكان الرجل قد يخسر امرأته فى القمار ، وكان فى بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج[١١] فإذا مات زوجها صارت

---

(١) الباب التاسع .
(٢) منوشاستر الباب الحادى عشر .
(٣) الباب الثانى .
(٤) الباب العاشر .
(٥) أيضاً .
(٦) الباب الثامن .
(٧) أيضاً .
(٨) R. C. Dutt. 342—343,
(٩) منوشاستر .
(١٠) R.C . Dutt .P. 331.
(١١) اقرأ استهلاك قصة مهابهارت (الملحمة الهندية الكبرى) .

كالموءودة لا تتزوج ، وتكون هدف الإهانات والتجريح ، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء ، وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا ، وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضاً وعقولا ، وهذه الأمة — التى وصفها بعض مؤرخى العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة (١) — لبعد عهدها عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس فى القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات أصبحت هذه البلاد مسرحاً للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعى الذى ليس له مثيل فى الأمم ولا نظير فى التاريخ .

العرب : خصائصهم ومواهبهم :

أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه فى العصر الجاهلى بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلى ، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة فى سبيل العقيدة والصراحة فى القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة .

ولكن ابتلوا فى العصر الأخير — لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم فى شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم — بانحطاط دينى شديد ووثنية سخيفة قلما يوجد لها نظير فى الأمم المعاصرة ، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق فاسدة المجتمع متضعضعة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان .

وثنية الجاهلية :

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة ، كانوا يعتقدون فى الله أنه

---

(١) صاعد الأندلسى م ٤٦٢ طبقات الأمم ص ١١ .

إله أعظم خالق الأكوان ومدبر السموات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسَع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه ، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تُسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة ، قياساً على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملوكية الفاسدة ومجارى الأمور فيها ، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء ، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحوّلت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر ، ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع ، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب[1] .

أصنام العرب في الجاهلية :

ولم يزل هذا الفريق الثاني يقوى أمره ويستفحل مع إمعان القوم في الجاهلية وقرب هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات ، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة السائدة ، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ في الأمة ، ومن رجال الطبقة المثقفة ، وهكذا انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصي . قال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم

(١) راجع كتاب « بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن » — للأستاذ محمد عزت دروزه .

يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً[١] . واستهترت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأنصاب[٢] . وكان فى جوف الكعبة — البيت الذى بُنى لعبادة الله وحده — وفى فنائها ثلثمائة وستون صنما[٣] وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة . روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به[٤] . وقال الكلبى : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل ثلاث أثافىّ لقِدْره ، وإذا ارتحل تركه[٥]

الآلهة عند العرب :

وكان للعرب — شأن كل أمة مشركة فى كل زمان ومكان — آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ، ويتوسلون بهم عند الله واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم[٦] . قال الكلبى : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن[٧] . وقال صاعد : كانت حِمْير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطى سهيلا ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارداً[٨] .

---

(١) كتاب الأصنام ص ٣٣ .
(٢) كتاب الأصنام ص ٣٣ .
(٣) الجامع الصحيح للبخارى كتاب المغازى باب فتح مكة .
(٤) الجامع الصحيح كتاب المغازى باب وفد بنى حنيفة .
(٥) كتاب الأصنام .
(٦) كتاب الأصنام ص ٤٤ .
(٧) أيضاً ٣٤ .
(٨) طبقات الأمم لصاعد ص ٤٣٠ .

اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب :

وانتشرت اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ، ولكن لم تستفد منها العرب كثيراً من المعانى الدينية ، وكانتا نسختين من اليهودية فى الشام ، والنصرانية فى بلاد الروم والشام ، قد طرأ عليهما من التحريف والزيغ والوهن ما شرحناه من قبل .

الرسالة والإيمان بالبعث :

أما الرسالة ، فقد تصور العرب للنبى صورة خيالية ، وتمثلوه فى ذات قدسية ، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشى فى الأسواق . وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هنالك بعثا بعد الموت ، وحياة بعد هذه الحياة ، فيها الحساب ، والثواب والعقاب ، قالوا : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، وقالوا : « ءإذا كنا عظاماً ورفاتاً ءإنالمبعوثون خلقاًجديداً » . قال صاعد : كان جمهورهم ينكر ذلك « المعاد » لا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وإن كان مخلوقاً مبتدعا ، وكان فيهم من يقر بالمعاد ، ويعتقد إن نُحرت ناقته على قبره يحشر راكباً ، ومن لم يفعل ذلك حشر ماشياً[١] .

الأدواء الخلقية والاجتماعية :

أما من جهة الأخلاق ، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة ، وأسبابها فاشية ، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم ، تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت أسماؤها وصفاتها فى لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب[٢] وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً ، يرفرف عليها علَم يسمى غاية . قال لبيد[٣] :

قد بتُّ سامرها وغاية تاجر   وافيت إذ رفعت وعز مدامها

---

(١) أيضاً ص ٤٤ .

(٢) اقرأ كتاب المخصص لابن سيده ج ١١ ص ٨٢ — ١٠١ .

(٣) السبع المعلقات ، معلقة لبيد .

وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفاً لبيع الخمر ، كما قال لبيد : وغاية تاجر ، وقال عمرو بن قميئة [(١)] :

إذا سحب الريط والمروط إلى أدنى تجـارى وأنفض اللمما

وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية . قال الجاهلى [(٢)] :

أعَيَّرتنا ألبـــانها ولحومها وذلك عارٌ يا ابن ريطة ظاهر
نحابى بها أكفاءنا ونهينها ونشرب فى أثمانهـــا ونقامر

وكان عدم المشاركة فى مجالس القمار عاراً ، يقول الشاعر [(٣)] :

وإذا هلـكتُ فلا تريدى عاجزاً غسًّا ولا برماً ولا معـزالا

قال قتادة : كان الرجل فى الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله فى يد غيره فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً [(٤)] .

وكان أهل الحجاز العرب واليهود يتعـاطون الربا ، وكان فاشياً فيهم ، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة ، قال الطبرى : كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السنين ، يكون للرجل فضل دين فيـأتيه إذا حلَّ الأجل فيقول له تقتضينى أو تزيدنى ؟ فإن كان عنده شىء يقضيه قضى وإلا حوله إلى السن التى فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لَبُون فى السنة الثانية ، ثم حِقّة ثم جَزَعة ثم رباعياً هكذا إلى فوق ، وفى العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه [(٥)] .

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التى صاروا لا يفرقون

---

(١) ديوان الحماسة . (٢) ديوان الحماسة .
(٣) ديوان الحماسة .
(٤) « تفسير الطبرى » تفسير آية « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء الآية » .
(٥) تفسير الطبرى « ج ٤ ص٥٩ » .

بينه و بين التجارة الطبعية وقالوا إنما البيع مثل الربا ، قال الطبرى إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق زدنى فى الأجل وأزيدك فى مالك فكان يقال لهما إذ فعلا ذلك هذا ربا لا يحل فإذا قيل لهما ذلك قالا : سواء علينا زدنا فى أول البيع أو عند محل المال[١] .

ولم يكن الزنا نادراً وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً ، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد ، وكانوا قد يُكرهون بعض النساء على الزنا ، قال ابن عباس كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن[٢] .

قالت عائشة : « إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها ، نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الرجل ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يافلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك[٣] .

---

(١) تفسير الطبرى ، ص ٦٩ . (٢) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ١٠٤ .
(٣) الجامع الصحيح للبخارى كتاب النكاح باب من قال لا نكاح إلا بولى .

المرأة فى المجتمع الجاهلى :

وكانت المرأة فى المجتمع الجاهلى عرضة غبن وحيف ، تؤكل حقوقها وتُبْتَز أموالها وتحرم من إرثها وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه[١] وتورث كما يورث المتاع أو الدابة[٢]، عن ابن عباس قال « كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها أو تموت فيذهب بمالها » وقال عطاء بن أبى رباح : إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبى يكون فيهم ، وقال السُدّى : إن الرجل فى الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو يُنكحها فيأخذ مهرها وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهى أحق بنفسها[٣]، وكانت المرأة فى الجاهلية يطفف معها الكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هى بحقوقها ، يؤخذ مما تؤتى من مهر وتمسك ضراراً للاعتداء[٤]، وتلاقى من بعلها نشوزاً أو إعراضاً وتترك فى بعض الأحيان كالمعلقة[٥]، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث[٦]، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد[٧] .

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد ، ذكر الهيثم بن عدى — على ما حكاه عنه الميدانى — أن الوأد كان مستعملا فى قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وكانت مذاهب العرب مختلفة فى وأد الأولاد فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن ، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق

(١) سورة البقرة آية ٢٣٢ . (٢) النساء آية ١٩ .
(٣) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٣٠٨ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٣١ . (٥) النساء آية ١٣٩ .
(٦) الأنعام آية ١٤٠ . (٧) النساء آية ٣ .

وخوف الفقر ، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب فكان يشتريهم بعض سراة العرب وأشرافهم[١] قال صعصعة بن ناجية جاء الإسلام وقد فديت ثلثمائة موءودة[٢] ومنهم من كان ينذر — إذا بلغ بنوه عشرة — نحر واحد منهم كما فعل عبد المطلب ، ومنهم من يقول الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فألحقوا البنات به تعالى فهو عز وجل أحق بهن[٣]

وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة فى بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكوا فى ذلك عن أنفسهن مبكيات ، وقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق[٤] .

العصبية القبلية والدموية فى العرب :

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة ، وكان أساسها جاهلياً تمثله الجملة المأثورة عن العرب « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما » فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين .

وكانت فى المجتمع العربى طبقات و بيوت ترى لنفسها فضلا على غيرها ، وامتيازاً ، فتترفع على الناس ولا تشاركهم فى عادات كثيرة حتى فى بعض مناسك الحج ، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس فى الإفاضة والإجازة[٥] ، وتنسأ الأشهر الحرم ، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسىء متوارثاً ، يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وكانت طبقات مسخرة وطبقات سوقة وعوام ، فكان التفاوت الطبقى من مسلّمات المجتمع العربى .

وكان العرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية ، وألهمتهم إياه معيشتهم

---

(١) اقرأ بلوغ الأرب فى أحوال العرب للآلوسى .

(٢) كتاب الأغانى .

(٣) بلوغ الأرب (٤) أيضاً .

(٥) سورة البقرة آية ١٩٩ .

البدوية ، حتى صارت الحرب مسلاة لهم وملهى فقال قائلهم [١] :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

هانت عليهم الحرب و إراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا أن كليباً رئيس معدّ رمى ضرع ناقة لبسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها وقتل جساس بن مرة كليباً ، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد . دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن [٢] »

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا داحساً فرس قيس بن زهير كان سابقاً فى رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاتته الخيل وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها وأسر ونزح للقبائل ، وقتل فى ذلك ألوف من الناس [٣]

وكانت الحياة كلها شبكة محبوكة من ترات وثارات فشت حبائلها فى القبائل وأوصى بها الآباء الأبناء ، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة ، والطمع والجشع ، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب ، حتى كانت أرض الجزيرة كفة حابل لا يدرى الإنسان متى يُغتال وأين ينهب . وكان الناس يُتَخَطَّفُونَ من بين عشيرتهم فى القوافل حتى احتاجت الدول القوية إلى الخفارة الساهرة ، والبذرقة القوية [٤] ، فكانت عير كسرى تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة فيبذرقها حتى تخرج من أرض

---

(١) ديوان الحماسة . (٢ ، ٣) انظر أيام العرب .

(٤) البذرقة : الخفارة والحراسة .

بنى حنيفة ، ثم تدفع إلى تميم وتجعل لهم جعالة فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال كسرى باليمن[1] .

ظهر الفساد فى البر والبحر :

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

لمعات فى الظلام :

وكان النور الضعيف الذى يتراءى فى هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحُباحب الذى يضىء فى ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام ، ولا ينير السبيل ، وكان الذى يخرج فى ارتياد العلم الصحيح ، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه فى البلاد ، ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، حتى يأوى إلى رجال شواذ فى الأمم والبلاد ، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة ، هشمها الطوفان ، يدل على ندورتهم خبر سلمان الفارسى أكبر الروّاد الدينيين فى القرن السادس الذى شرّق وغرّب فى الفحص عنهم ، ولم يزل ينتقل من الشام إلى الموصل ، ومن الموصل إلى نصيبين ، ومن نصيبين إلى عمورية ، ويوصى به بعضهم إلى بعض ، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامساً وأدركه الإسلام فى هذا الظلام ، قال سلمان :

« لما قدمت الشام ، قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة ! قال فجئته ، فقلت : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك ، وأتعلم منك وأُصلّى معك ، قال : فادخل ، فدخلت معه ، قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق ،

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٣ .

قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا أدلكم على كنزه ؛ قالوا : فدلنا عليه ، قال فأريتهم موضعه ، قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقا ، قال : فلما رأوها ، قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه بمكانه ، قال: يقول سلمان فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهاراً منه ، قال : فأحببته حباً لم أحبه من قبل وأقمت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له يا فلان : إنى كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصى بى ، وما تأمرنى ؟ قال يا بنى والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ؛ لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه فالحق به ، قال : فلما مات وغُيِّبَ لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره قال : فقال لى : أقم عندى فأقمت عنده ؛ فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ؛ فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى ؛ فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟ قال : يابنى والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به ؛ فلما مات وغُيِّبَ لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبرى وما أمرنى به صاحبى ؛ قال: فأقم عندى فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ؛ فأقمت مع خير رجل ؛ فوالله ما لبث أن نزل به الموت ؛ فلما حُضِر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك ؛ فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟ قال : أى بنى ؛ والله ما نعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية فإنه بمثل ما نحن

عليه ؛ فإن أحببت فأته ؛ قال فإنه على أمرنا ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، وأخبرته خبرى فقال : أقم عندى ؛ فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كان لى بقرات وغنيمة ، قال ثم نزل به أمر الله ، فلما حُضِر قلت له يا فلان إنى كنت مع فلان ، فأوصى بى فلان إلى فلان ، وأوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟ قال : أى بنى ؛ والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من النـاس آمرك أن تأتيه ؛ ولـكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرّتين بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ؛ فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » إلخ [1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس عن سلمان ، ورواه الحاكم فى مستدركه ، والرواية لاتصال سندها وعدالة رواتها من أصح الوثائق التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية -

الفصل الثانى

النظام السياسى والمالى فى العصر الجاهلى

الملكية المطلقة :

كان العصر الجاهلى مسرحا للحكم الجائر المستبد ، فقد كانت السياسة فى هذا العصر ملكية مطلقة ، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة ، كما كان فى فارس ، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم فى الملك مستَمَدٌّ من الله ، وقد عملوا كل ما فى استطاعتهم للتأثير فى رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكى المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها ، وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقاً ، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء ، ويعتقدون أن السماء ذكر ، والأرض أنثى ، وقد ولد الكائنات ، وكان الامبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين[1] ، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة ، له أن يفعل ما يشاء ، وكانوا يقولون له : « أنت أبو الأمة وأمها » ، ولما مات الإمبراطور « لى يان » أو « تاى تسونغ » لبست الصين ثوب الحداد ، وحزنت الأمة حزناً شديداً ، فمنها من أثخن وجهه بالإبر ومن قطع شعره ، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش . وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان فى المملكة الرومية ، فكان المبدأ الأساسى هو تقديس الوطن الرومى ، والشعب الرومى ، ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقا يجرى منها الدم إلى مركزها ، فكانت الدولة تستهين فى ذلك بكل حق ومبدأ ، وتدوس كل شرف وكرامة ، وتستحل كل ظلم وشنيعة ، ولا يمنع بلاداً من هذا

---

(١) تاريخ الصين لجيمز كاركرن .

الحيف والظلم اشتراك فى دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للمملكة ، ولا يعترف لها فى زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها فى أرضها إنما هى ناقة رَكوب فى بعض الأحيان حَلوب فى بعضها لا يقدم لها من العلف إلا ما يقيم صلبها ويدر ضرعها .

الحكم الرومانى في مصر والشام :

يقول الدكتور الفرد . ج . بتلر عن الحكم الرومانى فى مصر :

« إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشىء من العطف على الشعب المحكوم »[1]

ويقول مؤرخ عربى شامى عن الحكم الرومانى فى الشام :

« كانت معاملة الرومان للشاميين بادىء بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب والمتاعب . ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية ، ولم تضعف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ، ولا أرضهم أرضاً رومانية ، بل ظلوا غرباء ورعايا ، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال ، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق ، وبهذه الأيدى عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع فى الشام »[2] .

« حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم فى البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والأنانية وقتل الأنفس ، وحكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة سادت فى عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها وكان حكمهم من أشد

---

(١) فتح العرب لمصر للدكتور الفرد . ج . بتلر تعريب محمد فريد أبو حديد .
(٢) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ١ ص ١٠١ .

الويلات وأشأم النكبات على الأمة الشامية [١] » .

وبالاختصار كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة فى حكم الأجانب ، وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى فى مراكز الدولة وعواصمها .

نظام الجباية والخراج فى إيران :

ولم يكن النظام المالى والسياسة المالية فى إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة فى كثير من الأحوال تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية .

يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال فى تقدير الضرائب وجباية الأموال ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدَّرَين مضبوطين ، وقد كانت الحرب تنشب فى بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة وكانت المقاطعات الغربية الغنية — وخاصة بابل — هدف هذه الضرائب دائما [٢] » .

كنوز الملوك ومدخراتهم

ولم يكن ما ينفق على أهل البلاد فى إيران من مالية الدولة شيئا كثيرا وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكتنزوا النقود ويدخروا الطرف والأشياء الغالية [٣] ، ولما نقل خسرو الثانى فى المدائن أمواله إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧ — ٦٠٨ م كان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب وذلك ما يساوى ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبى وفى العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان فى خزانته ٨٠٠ مليون مثقال ذهب [٤] .

---

(١) أيضاً ج ١ ص ١٠٣ . (٢) إيران فى عهد الساسانيين ص ١٦١ .
(٣) إيران فى عهد الساسانيين ص ١٦٣ .
(٤) إيران فى عهد الساسانيين .

الفصل الشاسع بين طبقات المجتمع :

كان الغنى لأفراد معدودين والفقر لمعظم الأهلين؛ يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » عن أخصب عهد من عهود إيران وعن أعدل ملك من ملوكها وهو كسرى أنوشروان « إن ما قام به كسرى من إصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكبر منه فى مصلحة الرعية فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضنك كما كانوا فى السابق ، وما شاهد الفلاسفة البيزنطيون من فوارق نسبية بين طبقات المجتمع والفصل الشاسع بينها والبؤس الذى كان يعيش فيه رجال الطبقات المنحطة أقلق خاطرهم وانتقدوا المجتمع الفارسى بقولهم إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء ويعاملونهم بظلم وقسوة شديدة[١] » .

وكانت المناصب وقفاً على بعض البيوتات والسلائل ذات الثروة والجاه والنفوذ عند الحكام .

الفلاحون فى إيران :

أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له وفشت فى الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم وكانوا يُستَخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل ، يقول المؤرخ « اميان مارسيلينوس » إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة[٢] وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة[٣] » .

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ص ٥٩٠ .
(٢) أيضاً ص ٣٢٤ . (٣) أيضاً ص ٤٣٥ .

الاضطهاد والاستبداد :

واضطهد اليهود فى الشام والعراق واليعقوبيون فى مصر اضطهاداً كبيراً واستبد الحكام استبداداً شديداً وعاثوا فى البلاد والدماء والأموال والأعراض وتصامّ أهل الحل والعقد عن شكواهم حتى صار الناس يعدون هذه الأوضاع الفاسدة ضربة لازب وقضاء محتوما ، وصاروا فى بعض الأيام يفضّلون الموت على الحياة .

المدنية المصطنعة والحياة المترفة :

استحوذت على الناس فى الدولتين — الفارسية والرومية — حياة الترف والبذخ وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة وغرقوا فيه إلى آذانهم . فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين فى غفلتهم لا هم لهم إلا اللذة والتهام الحياة وبذخوا بذخاً عظيما تخطى القياس ، ودقّقوا فى مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشى الحياة تدقيقاً عظيما جداً ، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسون ألف جواد وشىء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة ، وقصره مثال فى الأبهة والغنى[(١)] ، يقول مكاريوس : « لم يرو فى التاريخ أن مليكا بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجزايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى[(٢)] ولما خرجوا من العراق فى الفتح الإسلامى تركوا فى الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يدرى ما قيمته » وقد وجد العرب قبابا تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص ، قال العرب فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هى آنية الذهب والفضة[(٣)] ، ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذى أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا : « هو ستون ذراعاً فى ستين ذراعاً ، بساط واحد مقدار جريب ، أرضه بذهب

---

(١) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس طبع ١٨٩٨ ص ٩٠ .
(٢) أيضاً ص ٢١١ .
(٣) تاريخ الطبرى .

ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدير ، وفى حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء ، إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض[1] » ، وهذا يدل على ما وصل إليه البذخ والترفه فى المدينة الفارسية .

كذلك كان الشام فى الدولة الرومية وحواضرها وكانت الدولتان والمدنيتان — الفارسية والرومية — كفرسى رهان فى البذخ والترفه فى دقائق المدنية ، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم فى الشام بذخاً عظيما وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهة شيئاً كثيراً ، وبلغت من الترف والأناقة شأواً بعيداً ، وقد وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جَبَلة ابن الأيهم الغسانى فقال : لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إليه إياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة وأوقد له العود المندّى إن كان شاتياً ، وإن صائفاً بطّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه[2] .

وكان الأمراء والأقيال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك يحاولون أن يقلدوهم فى لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيما وتعقدت المدنية تعقداً عظيما ، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧٨ .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى — ج ١٤ ، ص ٢ .

ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة ، وكان لا بد منه لكل شريف أو وجيه ، حتى إذا أخل به أو غفل عنه أشير إليه بالبنان وتفادته العيون ، حتى صار ذلك واجباً من واجبات الحياة وشريعة من شرائع المجتمع التى لا يحل العدول عنها : عن الشعبى قال كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف ، وكان هرمز ممن تم شرفه فكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجوهر[1] ، وتمام شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة وأن الأزاديه كان مرزبان الحيرة أزمان كسرى ، وكان قد بلغ نصف الشرف ، وكان قيمة قلنسوته خمسين ألف[2] وبيع ما على رستم بسبعين ألفاً وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف[3] .

درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ورضعوا بلبانها ونشأوا عليها حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية ، وعز عليهم الفصال وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبعية البسيطة حتى فى ساعة عصيبة وفى فاقة واضطرار ، ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم للنمور وألف قيم للبزاة وآخرين وكان يستقل هذا العدد[4] واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر فأتى به فى قدح غليظ فقال لومت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى إناء يرضاه[5] .

الزيادة الباهظة فى الضرائب :

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبعية الزيادة الباهظة فى الضرائب وسن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٦ . (٢) أيضاً ص ١١ .
(٣) أيضاً ص ١٣٤ .
(٤) « إيران فى عهد الساسانيين » لأرتهر كرستن سين .
(٥) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦١ .

الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق وأثقلت كاهل الأهلين وأنقضت ظهرهم يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » : « وقد جرت عادة ملوك إيران بقبول الهدايا والتقدمات من الرعية وكانوا يسمون ذلك « آيين » وكان ذلك علاوة على الضرائب الرسمية ، وكانوا يأخذون من الناس الهدايا جبراً يوم نوروز والمهرجان وكانت مناجم الذهب فى أرمينيا ملكا للملك ولنفقاته الخاصة[(١)] » — يقول المؤرخ العربى الشامى :

« كان يقضى على الشعب الشامى أن يؤدى الجزية وعشر غلاته وأتاوة من المال ورسماً على كل رأس وللشعب الرومانى موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعى يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم العشارين ، يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج ، وفى كل ولاية عدة شركات من العشارين ، ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون فى مظهر السادة و يتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه و يسلبون نعمة الأهلين وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق[(٢)] » .

« أوجز أحدهم السياسة الإمبراطورية فى الرومان بقوله الراعى الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه فمضى القرنان و إمبراطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجى[(٣)] »

شقاء الجمهور :

وهكذا أصبح أهل البلاد فى كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التميز طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكى وأسرهم وعشائرهم والمتصلون بهم والأغنياء فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين و يتقلبون فى أعطاف النعيم و ينعلون أفراسهم عسجداً و يكسون بيوتهم حريراً وسندساً .

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين لأرتهر كرستن سين .
(٢) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧ .
(٣) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧ .

وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال ، كانوا فى جهد من العيش ، يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون فى القيود والأغلال ويعيشون عيش البهائم لا حظَّ لهم فى الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم ولا هَمَّ لهم إلا الأكل والعلف فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والملهيات ، وإذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا فى المحرمات ، ورغم هذا الجهد فى المعيشة يجهدون أنفسهم فى تقليد رجال الطبقة العليا فى كثير من أساليب حياتهم ، فكان ذلك أشد من الجهد فى سبيل الكفاف من الرزق والبلغة من العيش ، فتنغص حياتهم ، ويتكدر صفوهم ، ويشتغل بالهم .

بين غنى مطغ وفقر منس :

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء والأخلاق الفاضلة والمبادىء السامية فى العالم المتمدن المعمور بين غنى مطغ وفقر منس وأصبح الغنى فى شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير فى الموت وما بعده بنعيمه وترفه ، وأصبح الفلاح أو العامل فى شغل عن الدين كذلك لهمومه وأحزانه وتكاليف حياته وأصبحت الحياة ومطالبها هَمَّ الغنى والفقير وشغلهما الشاغل ، وكانت رحى الحياة تدور حول الناس فى قوة لا يرفعون فيها إلى الدين والآخرة رأساً ولا يتفرغون لما يتصل بالروح والقلب والمعانى السامية ساعة .

تصوير الجاهلية :

وقد صور أحد كبار علماء الإسلام(١) هذه الحال فأجاد التصوير — قال :

« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا فى لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمقوا فى مرافق المعيشة وتباهوا بها وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها

---

(١) وهو شيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى (م — ١١٧٦ هـ) .

ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن[١] وحمام و بساتين ، ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان ولا يكون له توسع فى المطاعم وتجمل فى الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وماتراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع ، وتولد من ذلك داء عضال دخل فى جميع أعضاء المدنية وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم وستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته فى نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل فى النضح والدياس والحصاد ، ولا تقتنى إلا ليستعان بها فى الحاجات ، ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رءوسهم إلى السعادة الأخروية أصلا ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه[٢] » .

---

(١) فسقية .

(٢) حجة الله البالغة (باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم) .

الباب الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول

مناهج الأنبياء في الإصلاح والانقلاب

العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم:

بُعِثَ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً ؛ فإذا كل شيء فيه في غير محله فمن أثاثه ومتاعه ما تكسَّر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر، ومنه ما تكدَّس وتكوَّم ، نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته ، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل مالا يملك لنفسه النفع والضرر ؛ رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ؛ وفسد نظام فكره ، فإذا النظرى عنده بديهي وبالعكس ، يستريب في موضع الجزم ، ويؤمن في موضع الشك . وفسد ذوقه فصار يستحلى المر ويستطيب الخبيث ، ويستمرىء الوخيم ؛ وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم ، ولا يحب الصديق الناصح ، رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله ، قد أصبح فيه الذئب راعياً ، والخصم الجائر قاضياً ، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظيا ، والصالح محروماً شقياً ؛ لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ، ولا أعرف من المنكر . ورأى عادات فاسدة تستعجل

فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان ، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال . ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهامة ، ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد . رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولاً ، وعباد الله خولاً ، ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجّه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالًا على أصحابها وعلى الإنسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيراً وإسرافاً ، والأنفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات ، والإبداع فى إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظَ بصانع حاذق ، ينتفع بها فى هيكل الحضارة ، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يُركّب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه ، ويجرح به أولاده وإخوانه .

نواحى الحياة الفاسدة :

إن كل ناحية من نواحى هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله ، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفّر على إصلاح ناحية من نواحيها ، وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع ويعانيه ، ولكن نفسية الإنسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والأبواب ، خفية التخلص والتنصل ، وإنها إذا زاغت أو اعوجت لا يؤثر فيها إصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها ، حتى يغير اتجاهها من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح ، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التى قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية

فى أرض كريمة ، وتحسم مادة الشر ويغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عز وجل .

وكل داء من أدواء المجتمع الإنسانى وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب إصلاحه حياة كاملة ، ويستغرق عمر إنسان بطوله ، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول ، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر فى بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة ، أعياه أمرها وحبطت جهوده ، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم ، وتبتغى النشوة حتى فى الإثم ، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية ، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة[١] ، لا تهجره إلا بتغيير نفسى عميق ، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسللت إلى غيره من أنواع الجريمة أواستباحته بتغيير الأسماء والصور .

لم يكن الرسول رجلا إقليميا أو زعيما وطنيا :

وكان مجال العمل فى بلاد العرب فسيحاً إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا إقليمياً وسار فى قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية ، ويكوّن إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها ، ولاشك أن أباجهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما كانوا فى مقدمة من ينضم إلى هذا اللواء القومى ، ويقاتلون تحته ويقلدونه الزعامة . أما كانوا يشهدون

---

(١) منعت حكومة أمريكا الخمر وطاردتها فى بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ، ويقدرون ما أنفقت الدولة فى الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة وما تحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعنادا فى تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ م إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر فى مملكتها إباحة مطلقة . « من كتاب تنقيحات ، للسيد أبى الأعلى المودودى » .

بصدقه وأمانته ؟ أما حكَّموه فى أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ومنحوه أكبر شرف ، إذ حكَّموه فى وضع الحجر الأسود فى مكانه من البيت ؟ أما قالوا له على لسان عتبة ، وهم ما عرفوا الإغراء السياسى : « إن كنت إنما بك الرِّياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً ما بقيت »[1] ، وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة وينتصر من العجم الظالمين ، ويغرز علم الفتح العربى والمجد القومى على هضاب الروم وفارس ، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الإمبراطوريتين فى ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة وجارة أخرى ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة .

وكانت فى الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة سياسى وكفاية إدارى وعزيمة عصامى وابتكار عبقرى ، فلو قيِّض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد .

لم يبعث لينسخ باطلا بباطل :

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يُبعث لينسخ باطلا بباطل ، ويبدل عدوانا بعدوان ، ويحرم شيئاً فى مكان ويحله فى مكان آخر ، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى ، لم يبعث زعيما وطنياً أو قائداً سياسياً يجر النار إلى قرصه ويصغى الإناء إلى شقه ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان . إنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى ص ٤٣ ج ٣ .

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها أو يتسللون إليها من نوافذها ، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب ، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتاً فى بعض نواحى البلاد ، ومنهم من يموت ولم ينجح فى مهمته [(١)] .

أتى النبى صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذى أعيا فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه . ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة وقام فى القوم ينادى : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ! » ودعاهم إلى الإيمان برسالته ، والإيمان بالآخرة .

---

(١) إن غاندى الزعيم الهندى الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية إلى مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرتين فى هذا العصر جعلهما شعاراً لمبدئه : الأول « لاعنف ولا مقاومة » وقد دعا إلى هذا المبدأ كديانة وفلسفة ، وظل سنين طوالا يدعو إليه بخطبه ومقالاته وصحفه ، واستنفد فى ذلك جهوده . ولما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسى وعن طريق الدعوة الدينية الأساسية لم تؤثر دعوته فى نفسية أمته تأثيراً عميقاً ، وقد جعلت هذه الأمة دعوته هباء منثورا فى الاضطرابات الطائفية العظيمة التى وقعت فى بنجاب الشرقية ودهلى عاصمة الهند فى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٤٧ م التى قتل فيها من المسلمين أكثر من نصف مليون ، وكانت مجزرة بشرية هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الأطفال والنساء والأعراض ما لا يكاد يصدقه المؤرخون المتأخرون ، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذى بلغت به أمته حد التقديس والتأليه .

والمبدأ الثانى نسخ اللمس المنبوذ ، ولم ينجح فى مهمته هذه كذلك نجاحا يعتد به ، فكان ذلك برهانا ساطعا على أن طريق الأنبياء هو الطريق الطبعى الصحيح فى الإصلاح والتغيير .

الفصل الثاني

رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

دفاع الجاهلية عن نفسها :

ما أخطأ المجتمع الجاهلي فهم هذه الدعوة ومراميها ، وما غُمَّ على أهله أمرها ، وأدركوا عند ما قرع أسماعهم صوت النبي صلى الله عليه وسلم أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدَّد إلى كبد الجاهلية ونعى لها ، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير ، وقاتلت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت ، وأجلبت على الداعي صلى الله عليه وسلم بخيلها ورجلها ، وجاءت بحدها وحديدها : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » ووَجد كل ركن من أركان هذه الحياة ومن أثاف الجاهلية نفسه مهدداً وحياته منذَرة ، وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب ، وكان ذلك آية توفيق النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أصاب الغرض وضرب على الوتر الحسَّاس وأصاب الجاهلية في صميمها وفي مقتلها ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم على دعوته ثبوتاً دونه ثبوت الراسيات ، لا يثنيه أذى ولا يلويه كيد ، ولا يلتفت إلى إغراء ، ويقول لعمه : « ياعم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هـذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه[1] » .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٣ .

في سبيل الدين الجديد :

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالته واليوم الآخر فى كل صراحة ، لا يكنى ولا يلوّح ولا يلاين ، ولا يستكين ولا يحابى ولا يداهن ، ويرى فى ذلك دواء لكل داء ، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب ورموه عن قوس واحدة ، وأضرموا البلاد عليه ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم وإخوانهم ، فأصبح الإيمان به والإنحياز إليه جد الجد ، لا يتقدم إليه إلا جاد مخلص هانت عليه نفسه وعزم على أن يقتحم لأجله النيران ويمشى إليه ولو على حسك السعدان ، فتقدم فتية من قريش لا يستخففهم طيش الشباب ، ولا يستهويهم مطمع من مطامع الدنيا ، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وقلقت بهم مضاجعهم ، فكأنهم على الحسك ، ورأوا أنهم لا يسعهم إلا الإيمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى بلدهم وبين سمعهم وبصرهم ، فكانت رحلة طويلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات ، ووضعوا أيديهم فى يديه ، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه ، وهم من حياتهم على خطر ، ومن البلاء والمحنة على يقين ، سمعوا القرآن يقول « أم حسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وسمعوا قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » فما كان من قريش إلا ما توقعوه . قد نثرت كنانتها ، وأطلقت عليهم كل سهم من سهامها ، فما زادهم كل هذا إلا ثقة وتجلداً ، وقالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » ولم يزدهم هذا البلاء والاضطهاد فى الدين إلا متانة فى عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتاً للكفر وأهله وإشعالا لعاطفتهم

وتمحيصا لنفوسهم فأصبحوا كالتبر المسبوك واللجين الصافى وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء .

التربية الدينية :

هذا والرسول صلى الله عليه وسلم يغذّى أرواحهم بالقرآن ويربى نفوسهم بالإيمان ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات فى اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل ، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحرروا من سلطان الماديات ومقاومةً للشهوات ونزوعا إلى رب الأرض والسموات ، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، لقد رَضَعوا حب الحرب وكأنهم ولدوا مع السيف ، وهم من أمة من أيامها حرب بسوس وداحس والغبراء وما يوم الفجار ببعيد . ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ، ويقول لهم « كُفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة » فاقهروا لأمره وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس فى غير جبن وفى غير عجز ، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم فى مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعى الطبعية إلى ذلك وقوتها ، وذلك غاية ما روى فى التاريخ من الطاعة والخضوع ، حتى إذا تعدت قريش فى الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام .

فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم :

والتقى أهل مكة بأهل يثرب ، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد ، فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ ، وكانت الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث ، ولا تزال سيوفهم تقطر دما ، فألَّف الإسلام بين قلوبهم ، ولو أنفق أحد مافى الأرض جميعاً ما ألَّف بين قلوبهم ، ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين المهاجرين ، فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء ، وتبذ كل ما روى فى التاريخ من خُلة الأخلاء .

كانت هذه الجماعة الوليدة — المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار — نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس ومادة للإسلام؛ فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده وعصمة للانسانية من الفتن والأخطار التي أحدقت بها، لذلك قال الله تعالى لما حضّ على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

انحلت العقدة الكبرى:

ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربيهم تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم، ولم تزل مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات وتفانياً في سبيل المرضاة وحنيناً إلى الجنة وحرصاً على العلم وفقهاً في الدين ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكره وينفرون في سبيل الله خفافا وثقالا قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعا وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة، فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم، ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها، وانحلت العقدة الكبرى — عقدة الشرك والكفر — فانحلت العُقَد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى — فكان النصر حليفه في كل معركة، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى، حدّثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد — نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفقة على راحاتهم، فحال

أمر الله بينها و بين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة .

حتى إذا خرج حظّ الشيطان من نفوسهم بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم ، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة وفى اليوم رجال الغد لا تجزّعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله ، واستخلفهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته .

أغرب انقلاب وقع فى تاريخ البشر :

لقد كان هذا الانقلاب الذى أحدثه صلى الله عليه وسلم فى نفوس المسلمين و بواسطتهم فى المجتمع الإنسانى أغرب ما وقع فى تاريخ البشر ، وقد كان هذا الانقلاب غريباً فى كل شىء : كان غريباً فى سرعته وكان غريباً فى عمقه وكان غريباً فى سعته وشموله ، وكان غريباً فى وضوحه وقربه إلى الفهم ، فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ، ولم يكن لغزاً من الألغاز . فلندرس هذا الانقلاب عملياً ، ولنتعرف مدى تأثيره فى المجتمع الإنسانى والتاريخ البشرى .

تأثير الإيمان الصحيح فى الأخلاق والميول :

كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصى بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى ، فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها فى أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون

بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ، فأخذوا بأيديهم أزِمّة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدبير شئونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له « من بنى هذا القصر العتيق ؟ » فيسمى ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عاريًا عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث فى نفوسهم هيبة ولا محبة .

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرّفت بواجب الوجود فى سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة ، ولم تثبت له إلا الخلق الأول ، ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ، ونفت الصفات وقرّرت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق ، والسلوب إذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد ، ولم نعلم مدينة واحدة ولا مجتمعاً ولا نظاما ولا عملا ولا بناية قامت على مجرد سلوب ، فتجردت الديانة فى أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء إليه فى الحوادث ومحبته بكل القلب ، وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها وأصبحت طقوساً وتقاليد وأشباحا للايمان .

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير فى الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ، آمنوا بالله الذى له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، العزيز الحكيم الغفور الودود الرؤوف الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شىء ، يجير ولا يجار عليه ، إلى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه ،

يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء فى السموات والأرض ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، إلى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه ، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيباً ، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن ، تغلغل الإيمان فى أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشىء غير الإيمان الكامل العميق .

وخز الضمير :

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملى على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمحت السورة البهيمة فى حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحوَّل هذا الإيمان نفساً لوَّامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالا مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحمّلها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة .

وقد حدثنا المؤرخون الثقات فى ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا فى التاريخ الإسلامى الدينى . فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى » فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله إنى قد زنيت » فرده الثانية ،

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفىّ العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرُجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله إنى قد زنيت فطهّرنى » وأنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لِمَ تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً ، فوالله إنى لحبلى . قال : إما لا فاذهبى حتى تلدى . قال فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته . قال : فاذهبى فأرضعيه حتى تطعميه . فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبى الله سبه إياها فقال : « مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[1] .

الثبات أمام المطامع والشهوات :

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النّزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفى الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد ، وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً ، وقد وقع فى تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله مما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ؛ وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان .

حدَّث الطبرى قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحُق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال والذين معه ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحدود .

ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به . فعرَفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه . فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[1] .

الأنفة وكبر النفس :

وكأن هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عالياً وأقام صفحة عنقهم فلن تحنَ لغير الله أبداً ، لا لملك جبار ولا لحبر من الأحبار ولا لرئيس دينى ولا دنيوى ، وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته ، فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة ؛ فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان .

عن أبى موسى قال : انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك . فقال جعفر : لا نسجد إلا لله[2] .

الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء :

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦ .

(٢) البداية ج ٣ .

سلاحه ودرعه و بيضته على رأسه ، فقالوا له ضع : سلاحك ، فقال إنى لم آتكم و إنما جئتكم حين دعوتمونى فإن تركتمونى هكذا و إلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة :

ولقد بعث الإيمان بالآخرة فى قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنيناً غريباً إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة ، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى عين فطاروا إليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شىء .

تقدم أنس بن النضر يوم أُحُد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب الكعبة ، إنى أجد ريحها من دون أحد ، قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قدقتل ومثّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه[١] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض . قال : نعم ، قال : بخ بخ ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[٢] .

عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال : سمعت أبى رضى الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف،

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم

فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا ؟ قال : نعم . فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب حتى قتل[١] .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن بنيّ هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك والله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل يوم أحد شهيداً[٢] .

قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فقسمه ، وقسم للأعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه فقال : ماهذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه فجاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : قسم قسمته لك ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا — وأشار إلى حلقه بسهم — فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله ليصدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقال : أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال : صدق الله فصدقه[٣] .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٣٥ .
(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٠ .

من الأنانية إلى العبودية :

وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون فى سلك ، يسيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء ، فأصبحوا الآن فى حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهى ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهى استسلاماً كاملا ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالا ولا نفساً ولا تصرفاً فى الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يَصِلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره . ولما كان القوم يحسنون اللغة التى نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها ، عرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة وعرفوا أنه خروج من حياة إلى حياة ، ومن مملكة إلى مملكة ، ومن حكم إلى حكم ، أو من فوضوية إلى سلطة ، أو من حرب إلى استسلام وخضوع ، ومن الأنانية إلى العبودية ، وإذا دخلوا فى الإسلام فلا افتيات فى الرأى ولا نزاع مع القانون الإلهى ولا خيرة بعد الأمر ولا مشاقة للرسول ولا تحاكم إلى غير الله ولا إصدار عن الرأى ، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائتمار بالنفس ، فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلى الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه ، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الإسلام من غير تأن .

همّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله ! قال: ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لاشىء ، كنت أذكر الله .

فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله مارفع يده عن صدرى حتى ماخلق الله شيئاً أحب إلىَّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : يأبى الله عليكِ والإسلام[١] .

المحكمات والبينات فى الالهيات :

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، ومايهجم عليه الإنسان بعد موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب ، وكفوهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدى إليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعا ، وبدأوا البحث أُنُفاً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خرِّيتاً ، وكانوا فى ذلك أكثر ضلالاً ؛ وأشد تعباً وأعظم اشتغالا بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدَّى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية ، وما حُدِّد وضُبِط فى الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال ، وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آلته ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخانته عزيمته ، فرجع بمذكِّرات وإشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا فى الإلٰهيات من غير بصيرة ، وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ، ونظريات مستعجلة ، فضلُّوا وأضلوا .

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادىء ثابتة ومحكمات هى أساس المدينة

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٢٣٢ .

الفاضلة ، والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان ، فحُرموها على تعاقب الأعصار ، فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار ، فزاغ أساس المدنية وتداعى بناؤها ، وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين جداً ، إذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكُفُوا المئونة وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم فى غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا فى الدين بلُبِّ اللباب .

الفصل الثالث

المجتمع الإسلامى

طاقة زهر :

إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد فى المجتمع البشرى إلى موضعه ، لايقصر عنه ولا يتعداه ، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها ؛ أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهيَنّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »[1] ، ويسمعه الناس يقول : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى[2] » ، ويقول : « إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طَفّ الصاع لم يملئوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى[3] » ، وعن أبى ذر رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحد ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله » ، ويسمعه الناس يقول فيما يناجي به ربه فى آخر الليل : « وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، سورة الحجرات .

(٢) رواه ابن أبى حاتم .

(٣) رواه الإمام أحمد .

(٤) رواه أبو داود .

ليس منا من دعا إلى عصبية :

واقتلع صلى الله عليه وسلم جذور الجاهلية وجراثيمها ، وحسم مادتها ، وسد كل نافذة من نوافذها ، فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[١] ، وعن جابر بن عبد الله قال : كنا فى غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار . فقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها منتنة[٢] » وحرم حَمِيّة الجاهلية ، وقيد ذلك التناصر الذى جرت الجاهلية العربية على إطلاقه ، فكان من الأمثال السائرة وشرائع الجاهلية الثابتة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من نصر قومه على غير الحق ، فهو كالبعير الذى ردى فهو ينزع بذنبه »[٣] ، وتغيرت بذلك نفسية العربى وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربى لا يسيغ ذلك المثل العربى السائر ، فلما قال النبى صلى الله عليه وسلم مرة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » لم يملك نفسه ، فقال : « يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ » ، قال صلى الله عليه وسلم : تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه[٤] .

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته :

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الإسلامى متعاونة متعاضدة لا يبغى بعضها على بعض ، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وأصبح كل واحد فى المجتمع راعيا ومسئولا عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه البخارى .
(٣) تفسير ابن كثير .
(٤) حديث متفق عليه .

راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته [١] ، وهكذا كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً رشيداً عاقلا مسئولا عن أعماله .

لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق :

وأصبح المسلمون أعواناً على الحق ، أمرهم شورى بينهم ، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم ، فإن عصى فلا طاعة له عليهم ، وأصبح شعار الحكم « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق [٢] » وأصبحت الأموال والخزائن التى كانت طعمة للملوك والأمراء ودولة بين الأغنياء مال الله الذى لا ينفق إلا فى وجهه ولا يخرج إلا فى حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه ، والخليفة كولى اليتيم إن استغنى استعف وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأصبحت الأرض التى اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاءون ويضيقونها على من يشاءون ؛ ويقطعها بعضهم بعضا كما يقطع الثوب ، أصبحت أرض الله التى من ظلم قيد شبر منها طوقه من سبع أرضين .

حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع :

وكان المجتمع البشرى قد فقد نشاطه وأريحيته فى الحياة وفى كل ما يأتى ويذر ، وكان مجتمعاً مرهقاً مخنوقاً ، فكان مدفوعاً إلى ساحة الحرب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض أولى الأمر ، وكان مدفوعاً إلى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه ، وكان الرجال فى هذا المجتمع يرغمون على التضحية والإيثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الأمور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة ، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة فكانوا مرغمين على أن يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه ، فانطفأت جمرة القلوب وبردت العواطف ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل ، ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار .

---

(١) حديث متفق عليه . (٢) متفق عليه .

كانت العاطفة القوية — التى يرجع إليها الفضل فى غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ ، تلك التى يسميها الناس « الحب » — تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون من يشغلها و يستثمرها ، فضاعت فى ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانية مما تغنى به الشعراء قديماً وحديثاً .

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد صلى الله عليه وسلم فحل عقاله وفك إساره ثم حل منه محل الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين ، وهو البشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وأبلغ معانى الحسن والإحسان ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، فاندفع إليه الحب الصادق كما يندفع الماء إلى الحدور ، وانجذبت إليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد إلى المغناطيس ، كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد ، وأحبه رجال أمته وأطاعوه حباً وطاعة لم يسمع بمثلهما فى تاريخ العشاق والمتيَّمين ، ووقع من خوارق الحب والاضمحلال والتفانى فى سبيل طاعته و إيثاره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده .

نوادر الحب والتفانى :

وُطىء أبو بكر بن أبى قحافة فى مكة يوماً بعد ما أسلم وضُرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله مالى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين

أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح ! قال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم »[١] .

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين ! قالت : أرنيه حتى أنظر إليه . فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل[٢] .

رفعوا خُبيبا رضى الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه : أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه . فضحكوا منه[٣]

وقال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد ابن الرَّبيع فقال لى : إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجدك ؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية بسهم ، فقلت: ياسعد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرنى كيف تجدك ، فقال : على رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام ، قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة وقل

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

(٢) رواه ابن إسحاق إمام المغازى ورواه البيهقى مرسلا .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣ .

لقومي الأنصار لا عذر لـكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته [١] .

وترَّس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك [٢] . ومص مالك الخدري جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنقاه قال له : مجه . قال : والله ما أمجه أبداً [٣] .

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني . قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجلٌ مشركٌ نجس [٤] .

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعد مارجع من الحديبية : أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ، على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملـكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنحم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، و إذا أمرهم ابتدروا أمره ، و إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، و إذا تـكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له [٥]

عجائب الانقياد والطاعة :

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود « الحب » المتطوعة ، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قوتهم ، يمثـل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر : « إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت واعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤ . (٢) أيضاً ص ١٣٠ .

(٣) أيضاً ص ١٣٦ .

(٤) سيرة ابن هشام ، ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة .

(٥) زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٥ .

تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك [١] »

وكان من شدة طاعتهم له صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب . يقول كعب : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى نفس الأرض فما هى الأرض التى أعرف ، إلى أن قال : حتى إذا طال علىَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىَّ فسلمت عليه فوالله ما ردَّ علىَّ السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عينى وتوليت حتى تسوَّرت الجدار [٢] .

وكان من طاعته أيضاً وهو فى موضع عتاب وجفوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه ويقول له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك فقال : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها . فقال لامرأته : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر [٣] .

وكان من حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وإيثاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه وتلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب ، ولكنه يرفض ذلك قال : « بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت

---

(١) أيضاً ص ١٣٠ .

(٢، ٣) متفق عليه .

كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها [١] .

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب ، فعن أبى بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة إذ قمت حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان — إلى قوله : فهل أنتم منتهون . فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم إلى قوله : فهل أنتم منتهون . قال : و بعض القوم شربته فى يده شرب بعضاً و بقى بعض فى الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما باطيتهم فقالوا : انتهينا ر بنا . انتهينا ر بنا [٢] .

ومن غرائب الطاعة للرسول و إيثاره على النفس والأهل والعشيرة ما روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبى ، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبى قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبى أنت وأمى ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله و إن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر منى ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ! فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن جرير بسنده فى التفسير عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر) الآية تفسير الطبرى ج ٧ .

لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى ، يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى . فقال: والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : اذهبوا إليه فقولوا له خله ومسكنه . فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم فنعم[1] .

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢٨ .

الفصل الرابع

كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوى المتقن وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة و بفضل هذا الكتاب السماوى المعجز الذى لا تنقضى عجائبه ولا تخلق جدته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإنسانية المحتضرة حياة جديدة . عمد إلى الذخائر البشرية وهى أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها ، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة و بعث فيها الروح الجديدة وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد فى محله فكأنما خلِقَ له ، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه ، وكأنما كان جماداً فتحول جسما ناميا وإنسانا متصرفاً ، وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملى على العالم إرادته ، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم « أوَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » .

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ ، فأصبح عمر الذى كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره ، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة ، ولا يتبوأ منها المكانة العليا ، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً ، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما فى الإدارة وحسن النظام فضلا عن الورع والتقوى والعدل الذى لا يزال فيه المثل السائر . وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت

كفاءته الحربية فى نطاق محلّى ضيق يستعين به رؤساء قريش فى المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم ، ولم يحرز الشهرة الفائقة فى نواحى الجزيرة إذا به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شىء إلا حصده ، وينزل كصاعقة على الروم ويترك ذكراً خالداً فى التاريخ . وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقى عليها نظرة الوداع ويقول : سلام على سورية سلاما لا لقاء بعده . وهذا عمرو بن العاص كان يُعد من عقلاء قريش وترسله فى سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتتح مصر وتصير له صولة عظيمة . وهذا سعد بن أبى وقاص لم نسمع به فى التاريخ العربى قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة إذا به يتقلد مفاتيح المدائن وينيط باسمه فتح العراق وإيران . وهذا سلمان الفاوسى كان ابن موبذان فى إحدى قرى فارس لم يزل يتنقل من رق إلى رق ومن قسوة إلى قسوة إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التى كان بالأمس أحد رعاياها ، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن فى كوخ ويحمل على رأسه الأثقال . وهذا بلال الحبشى يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد . وهذا سالم مولى أبى حذيفة يرى فيه عمر موضعا للخلافة يقول : لو كان حياً لاستخلفته . وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤته وفيه مثل جعفر بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبى بكر وعمر . وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزُهّاد المعدودين والعلماء الراسخين . وهذا على بن أبى طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس قد أصبحوا فى أحضان النبى الأمى صلى الله عليه وسلم من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبر الناس قلوبا وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً ، يتكلمون فينصت الزمان ويخطبون فيسجّل قلم التاريخ .

كتلة بشرية متزنة :

ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التى استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة وسخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أحسن منها اتزانا ، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها أو كالمطر لا يُدْرَى أأوله خير أم آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحى الإنسانية ، كتلة هى فى غنى عن العالم ، وليس العالم فى غنى عنها ، وضعت مدنيتها وأسست حكومتها وليس لها عهد بها ، فلم تضطر إلى أن تستعير رجلا من أمة أو تستعين فى إدارتها بحكومة ، أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارّتين عظيمتين ، وملأت كل ثغر وسدَّت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة ، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التى لم يمض عليها إلا بعض العقود — كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح — برجل من الرجال الأكفاء ، فكان منها الأمير العادل والخازن الأمين والقاضى المقسط ، والقائد العابد والوالى المتورع والجندى المتقى ، وكانت بفضل التربية الدينية التى لا تزال مستمرة و بفضل الدعوة الإسلامية التى لا تزال سائرة ، مادة لا تنقطع ومعيناً لا ينضب ، لا تزال تسنِد الحكومة برجال يرجِّحون جانب الهداية على الجباية ، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية ، وهنا ظهرت المدنية الإسلامية بمظهرها الصحيح ، وتجلَّت الحياة الدينية بخصائصها التى لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشرى .

لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب ، أصاب الجاهلية فى مقتلها وصميمها ، فأصمى رميته ، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً ويفتتح عهداً سعيداً ، ذلك هو العهد الإسلامى الذى لا يزال غرة فى جبين التاريخ .

الباب الثالث

العصر الإسلامي

الفصل الأول

عهد القيادة الإسلامية

الأئمة المسلمون وخصائصهم :

ظهر المسلمون وتزعموا العالم وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها ، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثا متزنا عادلا ، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم.

أولا : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم ، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، قد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) وقد قال الله تعالى : « يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

ثانياً : أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر ، بل مكثوا زمناً طويلا تحت تربية محمد صلى الله عليه وسلم وإشرافه الدقيق يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف

للامارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله ، أو أحداً حرص عليه[1] » ولا يزال يقرع سمعهم « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء ، بل كانوا يتدافعون فى قبولها ويتحرّجون من تقلدها ، فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للامارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعياً وراءها ؛ فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد ، بل عدوه أمانة فى عنقهم وامتحاناً من الله ، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قول الله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » وقوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » .

ثالثاً : أنهم لم يكونوا خَدَمَة جنس ، ورُسُلَ شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم . إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ، كما قال ربعى ابن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[2] » . فالأمم عندهم سواء ، والناس عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر — وقد ضرب ابنه مصريا، وافتخر بآبائه قائلا خذها من ابن الأكرمين ، فاقتص منه عمر — : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً (٢) . فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد ، ولم يراعوا فى الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً ، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادى مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها (٣) .

فى ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب — حتى المضطهدة منها فى القديم — أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة . وأن تساهم العرب فى بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب فى بعض الفضائل ، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ، حتى قال ابن خلدون : « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية (٤) إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته ، فهو عجمى فى لغته ، ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربى (٥) » ونبغ من هذه الأمم فى عصور

---

(١) من خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع .

(٢) القصة بتمامها فى تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

(٣) عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به . رواه البخارى فى الجامع الصحيح ، كتاب العلم .

(٤) يعنى سواء فى ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية .

(٥) المقدمة ص ٤٩٩ .

الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية ، وحسنات العالم ، فضيلة ومروءة وعبقرية وديناً وعملا ، لا يحصيهم إلا الله .

رابعاً : أن الإنسان جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقياً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لائقاً بها ، ويتغذى غذاء صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للانسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى ، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة ؛ فإذا كان فيهم نقص فى عقيدتهم ، أو فى تربيتهم عاد ذلك النقص فى مدنيتهم وتضخَّم وظهر فى مظاهر كثيرة ، وفى أشكال متنوعة ؛ فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة ، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة ، ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها فى وضع المدنية وشكلها ، وطبعتها بطابعها ، وصاغتها فى قالبها ، فكملت نواح للانسانية واختلت نواح أخرى أهم منها . عاشت هذه المدينة وازدهرت فى الجصِّ والآجر ، وفى الورق والقماش ، وفى الحديد والرصاص ، وأخصبت فى ميـــادين الحروب وساحات القتال ، وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور ، وماتت وأجدبت فى القلوب والأرواح وفى دوائر الفضيلة والأخلاق وفى منازل الناس وبيوتهم وفى الأنساب والأرحام ، وفى علاقة المرأة بزوجها ، والولد بوالده والوالد بولده ، والأخ بأخيه والرجل بصديقه ، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة ورواء ويشكو فى قلبه آلاماً وأوجاعا ، وفى صحته انحرافا واضطراباً .

وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة ، وتعادى هذه الحياة وتعاندها ، ذبلت زهرة المدنية وهزلت القوى

الإنسانية وبدأ الناس — بتأثير هذه القيادة — يؤثرون الفرار إلى الصحارى والخلوات على المدن ، والعزوبة على الحياة الزوجية ، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتتطهر الروح ، ويؤثرون الموت على الحياة ، لينتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ويستوفوا كمالهم هنالك ؛ لأن الكمال فى عقيدتهم لا يحصل فى العالم المادى ؛ ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة . ولما كان هذا مضاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه وتنتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق ، وهكذا تنتكس الإنسانية وتخلفها البهيمية والسبُعية الإنسانية الممسوخة ، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبعى ، وتستسلم وتخضع لها ، أو تسبق هى — بما يعتريها من الصعوبات فى معالجة أمور الدنيا — فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها وتسند إليهم أمور السياسة وتكتفى هى بالعبادات والتقاليد الدينية ، ويحدث فصل بين الدين والسياسة فتضمحل الروحانية والأخلاق وينقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشرى والحياة العملية حتى تصير شبحا وخيالاً أو نظرية علمية لا تأثير لها فى الحياة ، وتؤول الحياة مادية محضة وقلما خلت جماعة من الجماعات التى تولت قيادة بنى جنسها من هذا النقص ؛ لذلك لم تزل المدينة متأرجحة بين مادية بهيمية وروحانية ورهبانية ولم تزل فى اضطراب .

يمتاز أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم ، وكان يمكن لهم — بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذى قلما اتفق للإنسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع — أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية .

دور الخلافة الراشدة مثل المدينة الصالحة :

وكذلك كان ، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى

جميع هذه النواحى من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوى الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل وفى ظهور المدنية الصالحة . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيها المُثُل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الخلقى والروحى اتساع الفتوح واحتفال الحضارة فتَقِلُّ الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كمالى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهى منه ، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم ويشرفون على المدنية ، وبعقيدتهم وتربيتهم وخطتهم فى الحكم وسياستهم ، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا ، كانوا أعفّةً أمناء خاشعين متواضعين ، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً . يصف شيخ من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول : إنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم[1] . وقال الآخر : « هم فرسان بالنهار رهبان بالليل ، لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه[2] » . ويقول الثالث : « أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا ، لو حدّثتَ جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر[3] » ، ويغنم الجند فى المدائن تاج كسرى وبساطه وهو يساوى مئات الألوف من الدنانير فلا تعبث به يد ولا تَشِحُّ عليه نفس ، ثم يسلمونه إلى الأمير ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب ويقول : إن الذين أدّوا هذا لأُمناء[4] .

---

(١) رواه أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة .
(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ .
(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦ .
(٤) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

تأثير الأمانة الإسلامية فى الحياة العامة :

إن هذا الرعيل من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنسانى فى ظله وتحت حكمه، وأن يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير، وأن يعمر ويطمئن العالم فى دوره وتُخْصِبَ الأرض وتأخذ زخرفها، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها، لا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أو غل فى عنق فيعاودونه ويكسرونه، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبداً فيتهزونها ويهتبلونها، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها، وكذلك لا يعُدونها عذابا وعقوبة بجريمة فيتخلصون منها، ولا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهالكون عليها، وإلى ما فى الأرض من نعماء وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون فى اقتناصها؛ بل يعدُّون هذه الحياة نعمة من الله هى أصل كل خير وسبب كل برٍّ، يتقربون فيها إلى الله ويصلون إلى كمالهم الإنسانى الذى قُدِّر لهم وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها « هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » . ويعدُّون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها — أولا — من حيث أصل الإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض (إنى جاعل فى الأرض خليفة) (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)، و — ثانياً — من حيث أنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه فاستخلفه فى الأرض واسترعاه أهلها — (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصٰلحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير (خلق لكم ما الأرض جميعاً)، (كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) « قل من حرَّم زينة

الله التى أخرج لعباده والطيبٰت من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيٰمة » ، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها ، فيرشدون الضال ويردعون الغاوى ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود ويرأبون الصدع ويأخذن للضعيف من القوى ، وينتصفون للمظلوم من الظالم ، ويقيمون فى الأرض القسط ويبسطون على العالم جناح الأمن « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » .

وقد وصف عالم ألمانى مسلم ميزة المسلم وصفاً دقيقاً ، قال :

« إن الإسلام لا ينظر — كالنصرانية — إلى العالم بمنظار أسود ، بل هو يعلمنا أن لا نسرف فى تقدير الحياة الأرضية ، وأن لا نغالى فى قيمتها مغلاة الحضارة الغربية الحاضرة . إن المسيحية تذم الحياة الأرضية وتكرهها ، والغرب الحاضر — خلاف الروح النصرانى — يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يبتلعه ولكن ليس عنده كرامة له ، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة بل يعدها كمرحلة نجتازها فى طريقنا إلى حياة عليا ، وبما أنها مرحلة ومرحلة لا بُدَّ منها ليس للانسان أن يحتقرها أو يقلل من قيمة حياته الأرضية . إن مرورنا بهـذا العالم فى سفر الحياة لا بد منه ، وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغى لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة « إن مملكتى ليست إلا هذا العالم » ولا بالنظرية المسيحية التى تزدرى الحياة وتقول « ليس هذا العالم مملكتى » وطريق الإسلام طريق وسط بينهما ، القرآن يرشدنا أن ندعو : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » — فالتقدير لهذا العالم وأشيائه ليس حجر عثرة فى سبيل جهودنا الروحية الخصبة ، والرقى المادى مرغوب فيه مع أنه ليس غاية فى نفسه . إن غاية جهودنا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف

شخصية واجتماعية — والمحافظة عليها إن وجدت — تساعد فى ارتقاء القوة الخلقية فى الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ . الإسلام يهدى الناس إلى الشعور بالمسئولية الخلقية فى كل عمل يعمله كبيراً كان أو صغيراً . إن نظام الإسلام الدينى لا يسمح أبداً بمثل ما أمر به الإنجيل قائلا : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله » لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية ، ليس هناك إلا خيرة فقط ، خيرة بين الحق والباطل ، وليس شىء وسطا بينهما ، لذلك هو يلح على العمل لأنه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغى لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولا شخصياً عن المحيط الذى يحيط به وكل ما يقع حوله ومأموراً بالجهاد لإقامة الحق ومحق الباطل فى كل وقت وفى كل جهة فإن القرآن يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » هذا هو المبرر الخلقى للحركة الإسلامية الجهادية والفتوح الإسلامية الأولى والاستعمار الإسلامى ، فالإسلام استعمارى إن كان لا بُدَّ من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية فى شىء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع فى خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، لم يقصد منه إلا بناء إطار عالمى لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحى ، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل . الإسلام لا يوافق أبداً على الفصل الأفلاطونى والتفريق النظري البحت بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظرياً بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق و إزاحة الباطل ، فإن الفضيلة كما يقول الإسلام تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت إذا خذَلها وتقاعد عن نصرتها[١] » .

---

(١) IslAm At The cross Roads by Mohammad Asad (Leopold Weiss) Fifth Edition. p. 29.

المدنية الإسلامية وتأثيرها فى الاتجاه البشرى :

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها فى القرن الأول لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم فصلا جديداً فى تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع ، انقلب به تيار المدنية واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً ، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتى بها الأنبياء ويبشر بها المبشرون ويجاهد فى سبيلها المخلصون ، ولكن لم يكن يتمكن دعاتها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ومنهاجها متشبعة بمبادئها ، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا فى هذه المرة ، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح فى هذه السبيل مثل ما نالت أخيراً على يد محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، فكان هذا الفتح المبين للاسلام محنة جديدة للجاهلية لم تعهدها من قبل ولم تعرف كيف تخرج منها ، عهدها بها دعوة دينية روحية فإذا هى تصبح نجاة وسعادة وروحاً ومادة وحياة وقوة ومدنية واجتماعا وحكومة وسياسة . دين سائغ معقول كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير ، وشرع إلهى ووحى سماوى إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشرى ، ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس يسود فيها روح التقوى والعفاف والأمانة وتقدَّر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه ، والروح فوق المظاهر الجوفاء ، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى ، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة ، ويقل التنافس فى أسباب هذه الحياة والتكالب على حطام الدنيا ويقل التباغض والتشاحن ، كل ذلك إزاء مدنية صاخبة مضطربة متناحرة متداعية البنيان متزلزلة الأركان ، يظلم الكبير فيها الصغير ، ويأكل القوى فيها الضعيف ، ويتسابقون فى اللهو والفجور ، ويتنافسون فى الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم ، حتى تصبح الدنيا كلها حربا فى حرب وتصبح المدنية جحيما على أهلها ، « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » . حكومة عادلة تساوى بين رعيتها وتأخذ للضعيف من القوى

وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم ، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم ، خيارهم أمراؤهم ، وأزهدهم فى العيش أملكم لأسبابه وأقدرهم عليه ، إزاء حكومة عم فيها الجور والعسف ، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم ، وتسابق أهلها فى أكل أموال الناس وهتك أعراضهم وسفك دمائهم ، تفسد على الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلا بأخلاقها ، شرارهم أمراؤهم وملوكهم ، تشبع دوابهم وكلابهم وتجوع رعيتهم ، وتكسى بيوتهم ويعرى بيوت الناس .

فأصبح الناس لايجدون عائقاً عن الإسلام ، ولايواجهون صعوبة وعنتاً فى سبيل قبول الإسلام ، ولا يرون للجاهلية مرجِّحاً ومصلحة ، ويدخل الرجل فى الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً ويجد بَرد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الإسلام ودولة قوية يعتز بهاوأنصاراً يفدونه بأرواحهم وأنفسهم ، ونفساً مطمئنة ، وثقة فى الحياة بعد الموت ، فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم ، وصارت أرض الجاهلية تنتقَص من أطرافها ، وكلمة الإسلام تعلو وظله يمتد ، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله .

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيما جليلا ، فكان الطريق إلى الله من قبل فى دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقاً عسيراً محفوفاً بالأخطار ، فأصبح الآن سهلاً يسيراً آمنا مسلوكا ، وكان يصعب على الإنسان فى الوسط الجاهلى أن يطيع الله ، فصعب عليه فى الوسط الإسلامى أن يعصى الله ، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصورة فأصبحت اليوم خافتة مخذولة ، وكانت أسباب سخط الله وعصيانه مكشوفة موفورة فعادت نادرة مستورة ، وكانت الدعوة إلى الله فى أرض الله جريمة قد ترتكب سِرًّا وخفية ، فأصبحت جهراً وعلانية وحُرَّة آمِنة لا تلقى معارضة ذات بال ، ولايخاف أصحابها اضطهاداً فى سبيل العقيدة وأذى فى سبيل الدين الجديد « تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات » وأصبح أصحابها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يأمرون وينهون بمعنى الكلمة .

صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لايشعرون ، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات فى فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع . وبدأت مبادىء الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل فى الأحشاء ، وبدأت قيمة الأشياء تتغير فى عيون الناس والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لايشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك فى فلسفتهم وفى دينهم وفى أدبهم وفى مدنيتهم ، وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم ، وتنم عنه الحركات الإصلاحية التى ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين .

جاء الإسلام بالتوحيد ونعى على الوثنية والشرك ، فهان الشرك منذ ذلك اليوم فى عيون أهله وصغر ، وصار أهله يخجلون منه ويتبرّؤون منه ولا يقرون به بعد ما كانوا يجتهدون فى إظهاره ويستميتون فى الدفاع عنه ، وأصبح أهل كل دين يؤولون ما فى نظامهم الدينى من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ويلوون بذلك ألسنتهم ، ويجتهدون فى التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامى ويُشْبِهُهُ .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام ، من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا (Septimania)[1] حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن ليس للقسس حق فى ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران

---

(١) سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار ، فطبيعي أن لا يكون فيه اعتراف[١] .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجرى ، ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل ؛ فقد أصدر الامبراطور الرومانى « ليو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦م يحرّم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م يعد الإتيان بهذا وثنية ، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجورى الثانى والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيرينى من مؤيدى عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون إن كليوديوس (Claudius) أسقف تورين (الذى عين سنة — ٨٢٨ وحول ٢١٣ هـ) والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ، ولد وربى فى الأندلس الإسلامية[٢] . وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة ، روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتلون وجهه ، وقال : يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين[٣] » والأحاديث فى هذا الباب مستفيضة .

كذلك وجدت طائفة من النصارى[٤] شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام[٥] .

---

(١) خدابخش .   (٢) خدابخش .

(٣) السهوة النافذة بين الدارين والقرام الستر .

(٤) Haine's Christianity of Islam in Spain. p. 116

(٥) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلى فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد ، أما دعوة لوثر الإصلاحية الكبيرة ، فقد كانت على عِلاّتها أبرز مظهر للتأثُّر بالإسلام و بعض عقائده كما اعترف المؤرخون .

وترى كذلك تأثيراً للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية فى أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها فى أوربا النصرانية وفى الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامى (١) تراه وتلمسه فى نزعات الاحترام المرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر ، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته ، ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش فى العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين فى قليل ولا كثير .

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التى خُلقت بقيادتها وأعطيت القوس باريها ، وجرت المياه فى مجاريها ، لكان للعالم الإنسانى تاريخ غير التاريخ الذى نقرؤه حافلا بالزلازل والنكبات ناطقاً بطول بلاء الإنسانية ومِحَنها ، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقرُّ عيناً ، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك ، وبدأ الانحطاط فى المسلمين أنفسهم .

(١) Influence of Islam on indiau culture by Doctor Tara Chand

الفصل الثانى

الانحطاط فى الحياة الإسلامية

الحد الفاصل بين العصرين :

قال أحد الأدباء : « أمران لايحدد لهما وقت بدقة ، النوم فى حياة الفرد ، والانحطاط فى حياة الأمة ، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » إنه لحق فى قضية أكثر الأمم ، ولكن بدأ التدلى والانحطاط فى حياة الأمة الإسلامية أوضح منه فى حياة الأمم الأخرى ، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعناها على ذلك الخط التاريخى الذى يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين .

نظرة فى أسباب نهضة الإسلام :

كان زمام القيادة الإسلامية — والعالمية بالواسطة — بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إيماناً وعقيدة وعملا وخلقاً وتربية وتهذيباً وتزكية نفس وسمو سيرة ، وكمالاً واعتدالاً ؛ لقد صاغهم النبى صلى الله عليه وسلم صوغا ، وصبَّهم فى قالب الإسلام صبًّا ، فعادوا لايشبهون أنفسهم إلا فى الأجسام لا فى الميول والنزعات ، ولا فى الرغبات والأهواء ، ولو دقق مدقق لما رأى فى سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافى روح الإسلام والنفسية الإسلامية ؛ ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم ؛ وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما ، فكانوا أئمة يصلون بالناس ، وقضاة يفصلون قضاياهم ، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم ، وأمَنَةً لأموال المسلمين وخزنتهم ، وقواداً يقودون الجيوش

ويحسنون تدبير الحروب ، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله ؛ وكان الواحد منهم فى آن واحد تقياً زاهداً و بطلا مجاهداًوقاضياً فهماً ، وفقيهاً مجتهداً ، وأميراً حازماً وسياسياً محنَّكا ، فكان الدين والسياسة يتمثلان فى شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين ، حوله جماعة ممن تخرجوا — إن صح التعبير — من هذه المدرسة ، المدرسة النبوية ، أو المسجد النبوى ، أُفرغوا فى قالب واحد يحملون روحا واحدة ، وتلقوا تربية واحدة ، يستشيرهم الخليفة ويستبين بهم ، فلا يقطع أمراً ذا بال حتى يشهدوه ، فَسَرَت روحهم فى المدينة ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم ، وانعكست ميولهم ورغباتهم فى المدينة وظهرت خصائصهم فيها ، فلا عداء بين الروح والمادة ، ولاصراع بين الدين والسياسة ، ولا تفريق بين الدين والدنيا ، ولا تجاذب بين المصالح والمبادىء ، ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق ، ولا تناحر بين الطبقات ، ولا تنافس فى الشهوات .

شروط الزعامة الإسلامية :

إن الزعامة الإسلامية تقتضى صفات دقيقة واسعة جداً نستطيع أن نجمعها فى كلمتين « الجهاد » و « الاجتهاد » فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان ولكنهما كلمتان جامعتان عامرتان بالمعانى الكثيرة .

الجهاد :

أما الجهاد فهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب ، وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه والإسلام لأوامره ، وذلك يحتاج إلى جهاد طويل شاق ضد كل ما يزاحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى ، وكل من ينافس فى حكم الله وعبادته من آلهة فى الأنفس والآفاق ، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره فى العالم حوله وعلى بنى جنسه ، فريضة من الله وشفقة على خلق الله ، ولأن الطاعة الانفرادية قد تصعب وتمتنع أحيانا بغير

ذلك ، وذلك مايسميه القرآن « الفتنة » . ومعلوم أن العالم كله بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينية وقوانينه الطبيعية (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) « ألم تَرَ أن الله يسجد له من فى السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » . فيتعين أن جهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التى جاء بها الأنبياء ، وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه ، فلا حكم إلا لله ولا أمر إلا له ؛ وهذا الجهاد مستمر ماضٍ إلى يوم القيامة ، وله أنواع وأشكال لا يأتى عليها الحصر ، منها القتال ، وقد يكون أشرف أنواعه وغايته أن لا تبقى فى الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تتجاذبان الأهواء والأنفس « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفا بالإسلام الذى يجاهد لأجله وبالكفر والجاهلية التى يجاهد ضدها ، يعرف الإسلام معرفة صحيحة ويعرف الكفر والجاهلية معرفة دقيقة ، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية . ولا يجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية ومظاهرهما وأشكالهما وألوانهما ، ولكن على من يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامى ضد الكفر والجاهلية ، أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم .

كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملا وقوتهم تامة ، يقارعون الحديد بالحديد بل بأقوى من الحديد ، ويقابلون الريح بالإعصار ، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه ، وبِكل ما امتدت إليه يدهم ، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم فى ذلك العصر ، من سلاح وجهاز واستعداد حربى ، لا يُقصِّرون فى ذلك ولا يعجزون : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

الاجتهاد :

أما الاجتهاد ، فنريد به أن يكون من يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح فى النوازل والحوادث التى تعرض فى حياة المسلمين وفى العالم وفى الأمم التى يحكمها ، وفى المسائل التى تفاجىء وتتجدد والتى لا يستقصيها فقه مدون ومذهب مأثور وفتاوي مؤلفة ، ويكون عنده من معرفة روح الإسلام وفهم أسرار الشريعة والاطلاع على أصول التشريع الإسلامى وقوة الاستنباط — انفراداً أو اجتماعاً — ما يحل به هذه المشاكل ويرشد الأمة فى الغمة .

ويكون عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ماخلق الله فى هذا الكون من قوى طبيعية ، وما بثَّ فى الأرض وتحت الأرض من خيرات ومنابع ثروة وقوة ، وأن يسخرها لمصلحة الإسلام بدل أن يستخدمها أهل الباطل لأهوائهم ، ويتخذونها وسيلة للعلو فى الأرض ، ويسخرها الشيطان لتحقيق أغراضه والإفساد فى الأرض .

انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الأكفاء :

ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشرى أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء ، ولم يعدوا له عدة ، ولم يأخذوا له أهبة ، ولم يتلقوا تربية دينيه وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون فى عصرهم وجيلهم ، ولم يسيغوا تعاليم الإسلام إساغة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها ، ولم تنقَّ رءوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة ، ولم يكن عندهم من روح الجهاد فى سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد فى المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية — وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (م ١٠١) .

تحريفات الحياة الإسلامية :

فظهر من ذلك ثلمات فى ردم الإسلام لم تسد إلى الآن ، ووقعت تحريفات فى الحياة الإسلامية .

فصل الدين عن السياسة :

وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً ، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين ، فاستبدوا بالحكم والسياسة ، واستعانوا — إذا أرادوا واقتضت المصالح — بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين ، واستخدموهم فى مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاءوا ، وعصوهم متى شاءوا ، فتحرَّرت السياسة من رقابة الدين ، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة ، وملكا عضوضاً ، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارضٍ للخلافة وخارج عليها ، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغمض العين عما يقع ويجرى حوله ، يائساً من الإصلاح ، ومنتقد يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ويسمع ولا يملك من الأمر شيئاً ، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية ، ولكلٍّ ما نوى ، وحينئذ انفصل الدين والسياسة ، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة ، أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدى ، وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهى ، ومن ثمَّ أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة ، ورجال الدنيا طبقة متميزة ، والشقة بينهما شاسعة وفى بعض الأحيان بينهما عداء وتنافس .

النزعات الجاهلية فى رجال الحكومة :

ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة فى الدين والأخلاق ، بل كان فى كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها ، فسرت روحهم ونفسيتهم فى الحياة العامة والاجتماع ، وأصبحوا أسوة للناس فى أخلاقهم وعوائدهم وميولهم ، وزالت

رقابة الدين والأخلاق وارتفعت الحسبة ، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سلطانها ، لأنها لا تستند إلى قوة ولا تحميها حكومة ، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب ، والدواعى إلى خلافها متوفرة قوية ، فتنفست الجاهلية فى بلاد الإسلام ورفعت رأسها ، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهى والملاعب ، وانغمسوا فى اللذات والشهوات واستهتروا استهتاراً ، ونظرة فى كتاب الأغانى وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو ، وتهافت على الملاهى واللذات ، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها ، وبهذه السيرة وبهذه الأخلاق المنحطة ومع هذا الانهماك فى الملاهى لا تستطيع أمة أن تؤدّى رسالة الإسلام ، وأن تقوم فى الدنيا مقام خلفاء الأنبياء ، وتذكّر بالله والآخرة وتحضّ على التقوى والدين ، وأن تكون أسوة للناس فى أخلاقها ، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمناً طويلا : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

سوء تمثيلهم للإسلام :

وكان هؤلاء فى كل ما يأتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط ، لا يمثلون الإسلام ، ولا سياسته الشرعية ، ولا قانونه الحربى ، ولا نظامه المدنى ، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا فى النادر ، ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها فى قلوب غير المسلمين ، وضعفت ثقتهم بهم ، وفى لفظ مؤرخ أوربى — بدأ الإسلام بالانحطاط لأن البشرية بدأت تشك فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة .

قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة :

إن العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التى تلقوها من اليونان ،

وما هى إلا وثنيتهم القومية التى ترجموها فى لغتهم الفلسفية ، وأفاضوا عليها لباساً من الفن ، وما هى إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هـذا البحث والتنقيب ، وعملية تجزئة وتحليل فى مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلق بها أشبه بالتحليل الكيمياوى ، بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم ، ولـكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة العظيمة ، وظلوا قروناً طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث فى غير جهاد ، ويضيعون ذكاءهم فى مباحث فلسفية وكلامية لا تجدى نفعاً ولا تأتى بنتيجة ، وليس لها دعوة فى الدنيا والآخرة ، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخِّر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام ، ويبسطون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله .

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود وبذلوا فيها قسطاً كبيراً من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم .

أما ما وصل إليه المسلمون فى العلوم الطبيعية والتجريبية ، فإنه وإن كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة فى العلم والاختبار ، إلا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة فى دوائر علمية أخرى ، ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التى تمتعوا بها فى التاريخ ولم يظهر فيها من النوابغ والعبقريين مثل ما ظهر فى موضوعات أخرى . وإن ما خلفوه من كتب فى الطبيعيات والـكونيات والتجارب العلمية ، وإن كانت مما استفادت به أوربا فى نهضتها وأقرت بقيمتها ، إلا أنها تتضاءل جداً أمام هذه المـكتبة الهائلة الزاخرة التى أنتجتها أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط ، فمهما افتخرنا بآثار علماء الأندلس وحكماء الشرق ، فإنها لا تُعدُّ شيئاً بجانب الإنتاج الغربى الضخم فى العلم والحـكمة والتجربة والاختبار ، لا فى الـكمية ولا فى الـكيفية ، ولا فى الإبداع ولا فى الابتـكار ، ولا فى التدقيق العلمى ولا فى الإتقان الفنى ، وإذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الإسلامى بالناحية الروحية ونسبتها

إلى الناحية العلمية والتجريبية فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربى مثلا و بين أ كبر كتاب فى الطبيعيات والحكمة ، تر فرقا هائلا فى ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد فى سبيله ، و بذلك تعرف ذوق الشرق الغالب عليه .

الضلالات والبدع :

وكاد يحجب توحيد الإسلام النقى حُجُب من الشرك والجهل والضلالة ، وطرأت على النظام الدينى بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح ، وعن الدنيا ، وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وميزة هذا الدين و إعجازه فى صحته وحفظه ، لأنه يمتاز بأنه وحى الله وشريعته ووضعه المعجز وشرعه الحكيم (تنزيل من حكيم حميد) فإذا عَمِلت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له فضل على الأديان التى حرفها أهلها ، والنظم التى نسجتها أيدى الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحى المحفوظ والعلم المعصوم ، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة ، ولم يكن حقيقاً بأن تخضع له العقول و ينجذب إليه الناس .

إنكار الدين على المسلمين وإهابته بهم :

ولا يعزبن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، مهيباً بالمسلمين ناعياً عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عالياً وضوؤه مشرقا « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء ثورة على الشرك والبِدَع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، ولم يزل ينهض بتأثيرهما

فى كل دور من أدوار التاريخ الإسلامى وفى كل ناحية من نواحى العالم الإسلامى رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، يجددون لها أمر دينها ، و ينفخون فيها روح الجهاد ، و يفتحون لها باب الاجتهاد ، و يسعون لإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، فمنهم من استشهد فى هذا السبيل ، ومنهم من استطاع أن يمثل دوراً قصيراً يذكّر بالخلافة الراشدة : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) وهم مصداقُ الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله » فتاريخ الجهاد والتجديد فى الإسلام متصل لا تقطعه فترة ، ومشاعل الإصلاح متسلسلة متقد بعضها من بعض لم تطفئها العواصف .

نتاج القرون المنحطة :

وظلت خلية الإسلام تعسّل فى أدوار الانحطاط أيضاً ، و يظهر من الملوك والفاتحين أفرادٌ هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح فى سيرتهم وأخلاقهم ، وفى دينهم وتقواهم ، و ينهض فى العالم الإسلامى رجال يتجمل التاريخ بذكرهم ، وكان المسلمون — رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثلى — أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم ، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية فى انتشارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة فى العالم تهابها الدول وتحسب لها كل حساب .

انهيار صرح القوة الإسلامية :

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهن بدون أن يشعر بذلك الأجانب حتى إذا خُضِّدت شوكة المسلمين فى القرن السابع لما مزق التتار حكومة خوارزمشاه

— المملكة الإسلامية الأخيرة — وسقطت بغداد فى أيديهم زال ذلك الشبح المخيف وسقط الجدار ، فعاثت الطيور والوحش فى الحقل ، وتجاسر الناس على المسلمين و بلادهم .

ورث التتار والمغول تراث المسلمين وخَلَفوهم فى الحكومة ، وناهيك به بؤساً وشقاء للانسانية وخراباً للعالم أن يتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة .

الفصل الثالث

دور القيادة العثمانية

العثمانيون على مسرح التاريخ :

فى ذلك الحين ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وفتح محمد الثانى ابن مراد وهو ابن أربع وعشرين سنة القسطنطينية العظمى عاصمة الدولة البيزنطية المنيعة سنة ٨٥٣ هـ (١٤٥٣ م) فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل فى نفوس المسلمين ، وكان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعاً للثقة فى قيادة الأمم الإسلامية وفى استرداد قوة المسلمين ومكانتهم فى العالم ، وكان فتحهم للقسطنطينية التى استعصت على المسلمين ثمانية قرون[1] دليلا على كفاءتهم وقوتهم و بلوغهم درجة الاجتهاد فى صناعة الحرب ، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة فى آلات الحرب واستخدامهم لمهمتهم قوة العلم والعمل ، وكل ذلك مالا غنى للأمة عنه .

تفوق محمد الفاتح في فن الحرب :

وقد كان محمد الفاتح — كما يقول درابر — يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربى ، وكان قد أعَدَّ لهذا الفتح عدته واستفاد كل ما فى عصره من معدات حربية .

---

(١) غزا الأسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطاة سنة ٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح ، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية ٥١ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية ، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك ، ولم يفتحوها لمنعتها .

قال البارون « كارادفو » (Baron Carra de vaux) فى كتابه « مفكرو الإسلام » فى الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح :

« إن هذا الفتح لم يُقَيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسَّرَ لمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبِّر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان فى عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافعُ حينئذ حديثة العهد بالإيجاد ، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجريّاً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ، ومعه مدفعية هائلة ، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية ، وهو الذى — من قريحته — تصورَ سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها فى البحر من جهة قاسم باشا(١) »

مزايا الشعب التركى :

وقد تفرد الشعب التركى المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ واستحق بها زعامة المسلمين :

أولا — أنه كان شعباً ناهضاً متحمساً طموحاً فيه روح الجهاد ، وكان سليما — بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة فى الحياة — من الأدواء الخلقية والاجتماعية التى أصابت الأمم الإسلامية فى الشرق فى مقتلها .

ثانياً — أنه كان متوفِّراً لديه القوة الحربية التى يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية ، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها ، ويتبوأ بها قيادة

---

(١) من حواشى الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامى الجزء الأول ص ٢٢٠ الطبعة الثانية .

العالم ، فقد بادر العثمانيون فى صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها واهتموا بالمدافع ، وأخذوا بالحديث الأحدث من آلات الحرب ، وعُنُوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها حتى صاروا فى صناعة الحرب أئمة بغير نزاع ، والمثل الكامل والقدوة لأوربا .

وكانوا يحكمون فى ثلاث قارات : أوربا ، وآسيا ، وإفريقية ؛ ملكوا الشرق الإسلامى من فارس حتى مراكش ، ودوَّخوا آسيا الصغرى وتوغلوا فى أوربا ، حتى بلغوا أسوار « فينا » وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع . . . . . قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبى حوله ، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالى أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة فلا يباح دخوله لأجنبى ، وأنشأوا أسطولا عظيما لا قِبَل لأوربا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبندقية وأسبانيا والبرتغال ومالطه عام ٩٤٥ هـ = ١٥٤٧ م — ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً .

وقد جمعت الإمبراطورية العثمانية فى عهد سليمان القانونى الكبير بين السيادتين البرية والبحرية ، وبين السلطتين السياسية والروحية .

بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوة (النهرين) فى الشمال ونبع النيل والمحيط الهندى فى الجنوب وسلسلة جبال القفقاس فى الشرق وجبال أطلس فى الغرب وهى مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع .

وكان الأسطول العثمانى مؤلفاً مما يزيد على ٣٠٠٠ مركب حربى ، وكان القسم الشرقى من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرا وأزاق والأسود والأحمر وفارس فى حوزته وتحت سيطرته .

ودخل كل مدينة شهيرة فى العالم القديم ما عدا رومة فى ضمن حدود الدولة العثمانية[١] ، وكانت أوربا كلها ترتعد منهم فرقا ، ويدخل ملوكها الكبار فى ذمة

---

(١) فلسفة التاريخ العثمانى لمحمد جميل بيهم .

ملوكهم ، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراما للترك إذا نزلوا بها — وأمر البابا أن يحتفل بعيد ، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعى محمد الفاتح .

ثالثاً : كانوا فى أحسن مركز للقيادة العالمية ، كانوا فى شبه جزيرة البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوربا ، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين الأسود والأبيض وواصلة بين البرين آسيا وأوربا ، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوربا وأفريقية ، حتى قال نابليون : « لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » .

وكانت أوربا لها الخطر الكبير والشأن العظيم فى المستقبل القريب ، تزخر فيها القوى الحيوية وتجيش فى صدورها عوامل الرقى ، فكان فى استطاعة الترك — لو وفق الله — أن يتقدموا فى ميدان العلم والعقل ويسبقوا أمم أوربا النصرانية ، ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوربا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار .

انحطاط الأتراك فى الأخلاق وجمودهم فى العلم وصناعة الحرب :

ولكن من سوء حظ المسلمين — فضلا عن سوء حظ الأتراك — أخذ الترك فى الانحطاط والتدلى ودبَّ إليهم داء الأمم من قبلهم الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة ، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين فى كتب التاريخ التركى ، وليس هذا موضع تفصيله ، وكان شرّ ما أصيبوا به الجمود فى العلم والجمود فى صناعة الحرب وتنظيم الجيوش ، وقد نسوا قول الله تعالى : « وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا استَطَعتُم مِن قُوَّةٍ ومِن رِباطِ الخيل تُرهِبُونَ به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم » إلخ . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها » ، وكان خليقا بهم — لحرج مركزهم

السياسى والجغرافى ، وقد أحاطت بهم الدول الأوربية إحاطة السوار بالمعصم — أن يجعلوا وصية القائد الإسلامى الكبير عمرو بن العاص رضى الله عنه للمسلمين فى مصر نصب أعينهم : « واعلموا أنكم فى رباط إلى القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم » ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان ، وتخلفوا وسبقت الأمم الأوربية .

الجمود العلمى فى تركية :

وقد وصفت الفاضلة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمى فى تركيا وصفاً يحسن بنا أن ننقله هنا قالت :

« ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام فى تركيا يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به ، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح مركزين للعلوم والفنون السائدة فى ذلك الزمان ، لكن لما نشط الغرب من عقال الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة فأحدث انقلاباً فى العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام بواجبات المعلمين ، كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان فى القرن الثالث عشر المسيحى لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم ، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على نظامهم التعليمى إلى القرن التاسع عشر المسيحى » .

« إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين فى شىء ، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذى كان عند المسلمين أو النصارى ، إنما كان مبنياً على فلسفة الإغريق ، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذى كان فيلسوفاً وثنياً ، ويجدر بى فى هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء المسيحيين وعقلية علماء المسلمين .

لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعى ، والقسط الأوفى فى تعليمه والأهمية الكبرى للحياة الخلقية والاجتماعية ، ومقصوده الأكبر فصل

ما بين الحسن والقبيح والخير والشر ، إنه جاء بشريعة للعالم ، وكلما ذكر مسألة من مسائل مابعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تعقداً أو إشكالا ، إن أساس تعليمه التوحيد ، فكان الإسلام ديناً سمحاً بسيطاً ، وهو أفسح صدراً للنظريات الجديدة عن العالم الطبعى من الأديان الأخرى بكثير ، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التى كانت تساعد فى التحقيق العلمى الجديد لم تطل مدتها فى حياة المسلمين ، قَيَّد العلماء والمتكلمون فى القرن التاسع الهجرى الإلهيات — فضلا عن الفقه — بسلاسل وقيود ، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد ، فى ذلك الوقت تغلغلت أفكار أرسطاطاليس فى الفلسفة الإسلامية .

بالعكس من ذلك الدين المسيحى ، الذى هو أولى بأن يسمى دين الراهب بولس ، فإن « سفر بدء التكوين » يحتوى على تفصيل للعالم الطبيعى ، وإذ آمن النصارى بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه ، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم فى هذا التأويل لجأوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس ، لأنَّ منطقه يعمل عمل السحر .

لما بدأ الغرب فى دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سُقِطَ فى أيدى رجال الكنيسة ، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض ، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم ، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقهم ضحية علمهم .

واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع ، فأدخلت علوم الطبيعة فى برنامج مدارسها وكلياتها ، وأصبحت جامعاتها التى لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين ، مركزاً للعلوم الطبعية والعلوم الحديثة ، ولم تهجر مع هذا فلسفتها ، وكان نتيجة ذلك أن ظل للكنيسة سلطان على فريق من الطبقة المثقفة ، وكان للقسس الكاثوليك والبروتستانت مشاركة فى العلوم الحديثة ، وكانوا يقدرون على أن يباحثوا الناشئة فى كل موضوع .

وكان العلماء فى تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يُعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة أن تدخل فى منطقتهم ، وإذ كانوا متصرفين بزمام تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشىء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمى ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت فى دور الانحطاط ، وكانت لا تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحُّوا على فلسفة أرسطاطاليس ، ويبنوا علمهم على الاستدلال ، فلم تزل المدارس الإسلامية فى القرن التاسع عشر المسيحى ، كما كانت فى القرن الثالث عشر المسيحى[١] » .

الانحطاط الفكرى والعلمى العام :

ولم يكن الجمود العلمى والكلال الفكرى مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب ، بل كان العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمى ، وشبه شلل فكرى ، قد أخذه الإعياء والفتور ، واستولى عليه النعاس . ولعل القرن التاسع — إذا لم نقل القرن الثامن — آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار فى الدين والعلم ، والأدب والشعر والحكمة ، والقرن العاشر أول قرون الجمود والتقليد والمحاكاة ، وترى هذا الجمود عاماً شاملا للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعانى الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم ، فلا تجد فى كتب التراجم التى أُلفّت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقرى ، أو النابغة أو المحقق على الأقل ، أو من جاء فى فن من الفنون بشىء طريف مبتكر ، أو زاد فى العلم زيادة حسنة ، إذا استثنينا بعض الأفراد فى أطراف العالم الإسلامى ، كالشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى (م ١٠٢٤ هـ) صاحب الرسائل الخالدة فى الشريعة والمعارف الإلٰهية ، والشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى (م ١١٧٦ هـ) صاحب حجة الله البالغة

---

(١) « صراع الشرق والغرب فى تركيا » محاضرات فى الإنجليزية لخالدة أديب ألقتها فى الجامعة الملية الإسلامية ، الخطبة الثانية « انحطاط العثمانيين » — ص ٤٠ — ٤٣ Conflict of East and west in Turkeyb y Halide Edib p. 40—43.

وإزالة الخفاء والفوز الكبير ورسالة الإنصاف ، وابنه الشيخ رفيع الدين (م ١٢٣٣ هـ) صاحب إبطال البراهين الحكمية وتكميل الأذهان ، والشيخ إسماعيل ابن عبد الغنى بن ولى الله الدهلوى (م ١٢٤٦ هـ) صاحب منصب الإمامة والعقبات والصراط المستقيم[١] .

ولا تقرأ فى شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نُظِمَ وقيل فيها شعراً مطبوعاً يعلق بالذهن ، أو إنشاءً مترسِّلا ينشرح له الصدر ، ترى أدبا فاتراً بارداً قد أفسده التأنق فى الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل فى الألفاظ والمعانى وكثرة التملق فى المدح والغزل بالمذكر فى الشعر ، والتكلف حتى فى الرسائل الإخوانية والأغراض الطبيعية ، والسجع البارد حتى فى كتب التاريخ والتراجم .

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغُصَّت بالحواشى والتقريرات والتلخيصات والمتون التى ضَنَّ فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها فى صناعة الاختزال . وكل ذلك ينبىء عن الانحطاط الفكرى والعلمى الذى حل بالعالم الإسلامى وتغلغل فى أحشائه .

معاصرو العثمانيين فى الشرق :

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان فى الشرق : إحداهما الدولة المغولية التى أسسها بابر التيمورى (سنة ٩٣٣ هـ ١٥٢٦ م) وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم ملوك المسلمين شوكة وأبهة وقوة حربية واتساع مملكة ، وكان أعظمهم أورنك زيب ، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء وأوسعهم مملكة وأعظمهم فتوحاً وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة ، وقد عاش أكثر من تسعين سنة وحكم خمسين سنة ، وتوفى ١١١٨ هـ أى فى فجر القرن الثامن عشر المسيحى وهو عصر مهم جداً فى تاريخ أوربا ، ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على

(١) انظر تراجمهم فى كتاب نزهة الخواطر (٨ مجلدات) للسيد عبد الحى الحسنى .

شيء من الاتصال بما كان يجرى فى أوربا ، وما تتمخض به من حوادث جسام ، وما يفور فى صدره من عوامل الرقى والنهضة ، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوربا وأطبائها أو سفراء دولها — على قلة ورودهم من هذه البلاد النائية — نظر الاستخفاف والاحتقار .

وكانت تصاقب دولتهم فى أفغانستان الدولة الصفوية ، وكانت دولة راقية متحضرة ولكنها شُغِلت بنزعتها الشيعية وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها أخرى .

وانحصرت هاتان الدولتان فى قطرهما وكانتا بمعزل عما يقع فى الشرق الأدنى فضلا عن الغرب وفى البلاد الإسلامية فضلا عن البلاد الأجنبية ، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال ، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية ووصَّى بها الآباء الأبناء ، وكذلك دراسة أحوال أوربا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان فى ذلك العصر .

نهضة أوربا الجاهلية وسيرها الحثيث في علوم الطبيعة والصناعات :

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحى من أهم أدوار التاريخ الإنسانى الذى له ما بعده ، قد استيقظت فيه أوربا من هجعتها الطويلة ، وهَبَّت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل وتعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها بكل جناح، تُسخِّر قُوى الطبيعة وتفضح أسرار الكون، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة وتفتح فتوحا جديدة فى كل علم وفن وفى كل ناحية من نواحى الحياة ، ونبغ فى هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون فى كل علم وعبقريون أمثال كوبرنيكس (Copernicus) وبرونو (Brunoe) وغليليو (Galilio) وكبلر (Kepler) ونيوتن (Newton) ، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم وأسسوا نظاماً حديثا واكتشفوا عوالم فى العلم ، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلمبس (Columbus) وفاسكودى غاما (Vasco Dagama)

ومجلن (Maglin) . كان تاريخ الأمم فى هذا الدور فى صياغة وسبك ، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها فى أفول و بعضها فى طلوع يصير الآفل منها طالعاً والطالع آفلا، وكانت ساعة فى ذلك الزمان تساوى يوماً بل أياماً ، ويوم يساوى عاماً بل أعواماً ، فمن ضيَّع ساعة فقد ضيع زمناً .

تخلف المسلمين فى مرافق الحياة :

ولكن المسلمين لم يضيِّعوا ساعات وأياماً بل ضيعوا أحقابا وأجيالا انتهزت فيها الشعوب الأوربية كل دقيقة وثانية ، وسارت سيراً حثيثاً فى كل ميدان من ميادين الحياة وقطعت فى أعوام مسافة قرون .

ومما ينبىء عن مقدار خمول تركيا فى ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل فى تركيا إلا فى القرن السادس عشر المسيحى ، ولم تدخل المطابع فى العاصمة والمحاجر الصحية فى هذه الدولة إلا فى القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربى ، وفى آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالونا يحلّق فوق العاصمة ظنُّوه من أعمال السحر والكيمياء . قد سبقتها دول أوربا الصغيرة فى الأخذ بأسباب المدنية والرفاه العام ، وحتى سبقتها مصر فى اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام وفى استعمال طوابع البريد ببضعة أشهر .

تخلفهم فى صناعة الحرب :

ولم يكن انحطاط المسلمين فى العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب ، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملا ، حتى تخلفوا عن أوربا فى صناعة الحرب التى كان التركى فى الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها ، قد أقرَّ بفضلهم وتبريزهم فيها العالم ، ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤ م) وظهر سبقها فى ميدان القتال أيضاً فانتبهت

الدولة العثمانية بعض الانتباه وانتدبت الماهرين الأوربيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر ، وعُنِى السلطان سليم الثالث فى فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح ، وكان عصامياً قد نشأ وتعلم خارج البلاط — خلافا لسابقيه — وأنشأ مدارس جديدة وكان يُعلِّم بنفسه فى مدرسة الهندسة ، وألّف جيشاً على الطراز الحديث ، وأدخل تعديلات وتحسينات فى النظام السياسى ، وقد بلغ الشعب حدًّا كبيراً من الجمود والمحافظة على القديم فى كل شىء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله ، وخَلَفَهُ محمود الثانى الذى حكم من سنة ١٨٠٧ إلى ١٨٣٩ م ومن بعده عبد المجيد الأول (١٨٣٩ — ١٨٥١م) فخلفا سليمان الثالث فى مهمته وتقدمت تركيا بعض التقدّم .

قارن هذا الشوط الذى قطعته تركيا الإسلامية فى ميدان الرقى والتقدم ، بالأشواط التى قطعتها أوربا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجد الفرق هائلا ، فلم يكن جريهما فى الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب فى عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة .

الباب الرابع

العصر الأوربى

الفصل الأول

أوربا المادية

طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها :

قبل أن ننظر ماذا حوّل القيادة من الأمم الإسلامية إلى الأمم الأوربية فى عقلية العالم وأخلاق الشعوب والأمم والمدنية والاجتماع واتجاهات الإنسانية وميولها ، وماذا جنى منه النوع الإنسانى ، وهل كان ربحه أكثر من خسارته ورزئه أو بالعكس ؟ . . يجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت ؟

ليست الحضارة الغربية فى القرن العشرين المسيحى وليدة هذه القرون المتأخرة التى تلت القرون المظلمة فى أوربا أوحديثة كما يتوهم كثيرمن الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية قد خلفتهما فى تراثهما السياسى والعقلى والمدنى ، وورثت عنهما كل ما خلّفتا من ممتلكات ونظام سياسى وفلسفة اجتماعية ، وتراث عقلى وعلمى ، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما ، بل انحدرت إليها فى الدم ، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع — حفظه لنا التاريخ — للعقلية الأوربية ، وأول حضارة

— سجلها التاريخ — قامت على أساس الفلسفة الأوربية تجلت فيها النفسية الأوربية ، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية تحمل روحا واحدة هي الروح الأوربية ، وظلّت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها وراثةً لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها ، حتى برزت بها فى القرن التاسع عشر فى ثوب برّاق يوهمك بطلاوته وزهو ألوانه أنه جديد النسج ، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان .

إذاً يحسن بنا أن نتعرف بالحضارة اليونانية والرومية أولاً وأن نعرف طبائعهما وروحهما ، حتى نكون على بصيرة فى انتقاد الحضارة الغربية والحكم عليها فى القرن العشرين . .

خصائص الحضارة الإغريقية :

اليونان أمة موهوبة ، من أنجب أمم العالم وأذكاها وأكثرها استعداداً للعلم والأدب ومن أخصبها أذهانا وعقولا ، وقد مثّلت فى العالم دوراً خالداً بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعبقريين تزهو بآثارهم مكتبات العالم . والذى يعنينا الآن هو أن نعرف طبيعة الحضارة التى أنشئوها ، فإذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها وجدنا من المزايا التى تمتاز بها عن المدنيات الأخرى خصوصاً المدنيات الشرقية ما يلى :

(١) الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس (٢) قلة الدين والخشوع (٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها (٤) النزعة الوطنية .

ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المتشتتة فى كلمة مفردة وهى « المادّية » فكانت الحضارة اليونانية شعارها « المادية » وهى التى ينمّ بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين ، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا فى

شكل آلهة شتى نحتوا لها تماثيل و بنوا لها معابد وهيا كل ، فللرزق إله وللرحمة إله وللقهر إله ، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادى ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصوّروا المعانى المجردة وتصوروها فى أجسام وأشكال ؛ فللحب إله وللجمال إله ، وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة فى فلسفة أرسطاطاليس إلا رشحة من رشحات هذه المادية التى لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية .

وقد سلّم العلماء الأوربيون بغلبة المادية فى الحضارة اليونانية ونوهوا بها فى كتبهم و بحوثهم العلمية ، وقد ألقى العالم الألمانى الدكتور « هاس » (Haas) ثلاث محاضرات فى جنيف عنوانها « ماهى المدنية الأوربية ؟ » وهو من العلماء الذين يرون أن المدنية الغربية لم تتأثر بالشرق وأنها مدنية مفردة ممتازة ، ونلخص هنا كلامه فيما نحن بصدده :

« المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب ، وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً ، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره ، وكان التثقيف الذهنى الذى يحتوى على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حداً خاصاً حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم ، وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين . أما اللون الروحى الذى فى تقاليد « أرفس » وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق ولا يصح أن ينسب إلى المدنية اليونانية » .

ولاحظ كثير من العلماء الأوربيين رقة الدين فى اليونان وقلة الخشوع والجد فى أعمالهم وكثرة اللهو والطرب فى حياتهم . يقول ليكى فى كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » : إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة ، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى ، روحية باطنية . وينقل « أبوليس » المؤلف الرومى قوله :

« إن المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء ، وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء » ويعلّق عليه بقوله : « لاريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم ديناً من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلة الخشية والخشوع ، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية » .

وكان لليونان فلسفة إلٰهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والالتجاء إليه والاطّراح على عتبته ، فإن من ينفى الصفات عن الله تعالى ويعطله وينفى عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر فى هذا الكون ، ويربط هذا العالم بما يسمونه « العقل الفعال وحركات الأفلاك » فإنه بطبيعة هذه العقيدة لايقصد الله فى حياته العملية إلا تقليداً ، ولا يرجوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخرُّ لعظمته ، ولا يستغيث به فى شدته ولايُسَبّحُ بحمده ويعيش كأنه لاإلٰه له ولا رب ، فإذا سمعنا أن اليونان لم يكونوا خاشعين لله وكانت عباداتهم وأعمالهم الدينية أجساداً بغير أرواح ، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم لم نستغربه البتة ، وإنما نتعجب إذا سمعنا عكس ذلك ، وقد أثّرت شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة فى قيمتها ، وكذلك الولوع بالتماثيل والصور والغناء والموسيقى التى يسميها اليونان الفنون الجميلة ، ولهجُ الأدباء والمؤلفين بالحرية الشخصية التى لا تعرف قيدا ولا تقف عند حد تأثيراً سيئاً فى أخلاق اليونان ومجتمعها ، فانتشرت الفوضى فى الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام ، وأصبح شعار الرجل الجمهورى (وهو كناية عن الحر والمتنوّر) الجرى وراء الشهوات العاجلة وانتهاب المسرات والتهام الحياة التهام الجائع النهم ، يصف سقراط — كما ينقل عنه أفلاطون فى كتابه « المملكة » — الرجلَ الجمهورى فكأنما يصف ناقد من نُقَّاد هذا القرن فتى القرن العشرين فى إحدى عواصم المدنية الغربية .

« إذا قيل له إن بعض المسرات من الرغبات التى هى طيبة وتستحق الاحترام و بعضها من الشهوات التى هى قبيحة و إن الأولى ينبغى أن يُعمل بمقتضاها وتحترم ، والأخرى مما ينبغى أن يمنع عنها و يقام عليها الحجر ، لم يقبل هذا الرجل هذا القانون الصحيح ولا يسمح بسماعه ، فإذا عرضت عليه هذه الحقائق أنغض إليك رأسه مستهزئاً وأكد لك أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام بغير فرق بينها ، وهكذا يعيش ويقضى أيامه مُرضياً شهواته التى تعتريه أحياناً ، ذات يوم تراه سكران ثملاً مصغياً إلى الغناء ، وفى يوم آخر تراه صائماً يجتزىء بالماء ، وتارة يدخل فى التربية والتمرين ، وأخرى تراه كسلان عاطلا يُهمل كل شىء ، ومرة تراه يعيش عيش فيلسوف ، وأحياناً يدخل فى السياسة وَينهض وَيخطب بمقتضى الوقت ، ربما يمدح بعض رجال الحرب وَالجندية وَيميل إليهم أو يشرع فى التجارة لأنه يغبط التاجر الرابح ، ليس لحياته نظام وَلا ضبط ولكنه يعد هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة وَيواصلها إلى النهاية » .

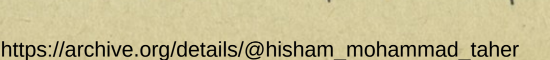
أما الوطنية فهى من لوازم الطبيعة الأوربية ، وَهى أظهر وأقوى فى أوربا منها فى آسيا ، وَقد أغرى بذلك الطبيعة الجغرافية وَأوحته ، لأن المناطق الطبيعية فى آسيا واسعة جداً وتشتمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر ، وَهى غنية مخصبة فى وسائل المعيشة ؛ فالمملكة فى القارة الأسيوية تجنح بحكم الطبيعة إلى السعة وَالعموم ، وظهرت فى أرضها وَازدهرت أوسع ممالك عرفها التاريخ . أما فى أوربا فالتنازع على البقاء فيها شديد ، وَالكفاح للحياة دائم مستمر ، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة ، وقد حصرت الجبال والأنهار الاجناس الأوربية فى نطاق ضيق طبعى دائم وبالأخص الجزء الأوسط الغربى والجزء الجنوبى من أوربا ، لا يسمح لممالك واسعة عظيمة ، وقد شاءت طبيعة هذه القارة أن تكون منشأ لممالك ضيقة صغيرة ؛ لذلك كان التصور السياسى فى أوربا فى القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالاً تاماً ؛ وأكبر مظهر لهذا

التصوير أرض يونان حيث وُجِدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة .

فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنية وينتحلونها ، وقد سلّم ليكى أن الفكرة الوطنية هى الفكرة السائدة فى اليونان ، وكانت الفكرة العالمية التى قد نطق بها بعض حكمائهم كسقراط وانكساغورس شاذة لم تنل أنصاراً وانتصاراً فى يونان ، فكان نظام أرسطاطاليس الأخلاقى مبنياً على التميز بين اليونانى وغير اليونانى ، وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التى أجمع عليها حكماء اليونان ، وأن أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب ، بل قال إن اليونانيين ينبغى لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم ؛ وقد راجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة فى الأوساط اليونانية وتغلغلت فى الأحشاء ، حتى لما قال فيلسوف إنه لا يخصّ مواطنيه بمواساته بل سيكون بِرُّه عاما لجميع اليونانيين استشرفه الناس عجباً ونظروا إليه شزراً .

خصائص الحضارة الرومية :

خَلَفَ اليونانَ الرومُ وفاقوهم فى القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية ، ولكن لم يلحقوا بهم بعد فى العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية التى كان للإغريق فيها فضل وتقدُّم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضاً الذين كانوا لا يزالون فى دورهم العسكرى ، فخضعوا لهم علمياً وتطفلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم . يقول ليكى: « إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور ، وكانت رومة لا تزال فى طورها الجندى لا تملك أثراً من الآثار الأدبية ، بل كانت لغتها قاصرة فى التعبير عن الأفكار والمعانى العالية ، فغُلِبَ الروم بتخلفهم وقصورهم فى العلم ، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التى غُلِبَ أهلها فى السياسة ، ولم يزالوا مأخوذين بسحرهم فى كل قسم من أقسام العلم ، فكان المؤرخون الأقدمون فى الروم يؤلفون



كتبهم اليونانية ، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعد ما بدأ شعراء الروم ينظمون الشعر فى اللاتينية » ولم يكن هذا الخضوع خاصاً فى عالم التأليف والأدب فحسب ، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية فى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع وفى العواطف والنزعات ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة العامة ، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون .

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية ، بل النفسية اليونانية إلى الروم ، وجرت منهم مجرى الروح والدم ، ولم يكن الروم — بطبيعتهم الأوربية — يختلفون عن اليونان فى الخصائص الفطرية كثيراً ، بل هنالك شَبَهٌ عظيم بين الأمتين ، إيمان بالمحسوس وغلو فى تقدير الحياة وشكٌّ فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد إلى ذلك كله اعتداداً بالقوة واحتراماً زائداً لها يبلغ العبادة والتقديس .

يظهر من التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ فى دينهم ، وإنى لأعذرهم فى ذلك ، فإن النظام الدينى الوثنى الخرافى الذى كان سائداً فى رومية يقتضى بطبيعته الشكَّ والاضطراب وضعف الإيمان ، فكلما تقدموا فى العلم وتنورت أفكارهم ، ازدادوا استخفافاً به ، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لادخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا ، يقول سيسرو Cicero : لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لادخل لهم فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة .
ويقول الراهب أغستين Auguostine :

« إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور التمثيل » وقد فقد الدين الرومى سلطانه الروحى على معتنقيه ، وبردت العاطفة الدينية فى قلوب الناس حتى تجرَّأ الناس على الآلهة وأهانوها فى بعض الأحيان ، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما غرق أسطول للامبراطور أغسطس Augustus استشاط غضباً ، وحطَّم تمثال

نيبتون Neptune إله البحر ، ولما مات جرمينيكس Germanicus رجم الناس أنصاب الآلهة (التى كانوا يذبحون عليها)[١] .

فلم يكن للدين تأثير فى أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم أخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب ، بل كان تقليداً من التقاليد ، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم . يقول ليكى : « إن الدين الرومى كان أساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمى إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر فى رومة مئات من الأبطال والعظماء ولكن لم ينهض فيها زاهد فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع مثالا فى تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنياً على الوطنية »[٢] .

والظاهرة التى يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصرة بل بعدها ، والتى أصبحت لها ديناً تدين به وشعاراً تعرف به هى روح الاستعمار والنظر المادى البحت إلى الحياة ، وذلك ما ورثته أوربا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه ، وقد أجاد وصفه العالم الألمانى المسلم الأستاذ محمد أسد فى كتابه النفيس « الإسلام على مفترق الطرق ». قال :

« إن الفكرة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هى احتكار القوة لها واستغلال الأمم الأخري لمصلحة الوطن الرومى فقط ، ولم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط ، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة ، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية ، إن الروم لم يدينوا بالدين جدياً

---

(١) تاريخ أخلاق أوربا «History of Europeon morals «Th spagan empire

(٢) المصدر نفسه .

أبداً ، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم وتوحدهم ، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل فى حياتهم العملية، كان لها أن تتكهن بالغيب — إذا سئلت عن ذلك — على لسان الكهان ، ولكن لم يحلوا لها أبداً أن تفترض شرائع أخلاقية على الناس »(١) .

الانحطاط الخلقى فى الجمهورية الرومية :

وفى نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقى والبهيمة ، وفاض بحر الترف فى العيش والبذخ فيضاناً عظيما — غاص الروم فيه إلى القاع وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين بها كالغثاء ، وتزعزع البناء الاجتماعى حتى كاد ينهدم ، وقد صوره « درابر » الأمريكى بقلمه البليغ :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات . بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسناء وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين لِلَّهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحَّط فى دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هنالك شىء يستحق العبادة فهو القوة ، لأنَّه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى

---

(١) Islam at th Cross Roads p. 38-39 .

يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكدّ اليمين ، وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ويعين إيرادات الإقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام رومة المدنى يشف عن أُبَّهة الملك ، ولكنه كان طلاءً خداعاً كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها » .

تنصر الروم :

وها هنا حادثةٌ عظيمة يجب أن يسجلها المؤرخ وينوه بها ، وهى اعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية ، وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانية على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥ م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ونالت فجاءة مالم تكن تحلم به من ملك عريض ودولة مترامية الأطراف وكلمة لا تعلوها كلمة . ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى المُلك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التى أريقت فى الذب عنه والنصر له ، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه ، ووطّأ لهم أكنافه وقلّدهم مفاتيح ملكه .

خسارة النصرانية فى دولتها :

ولكن انتصر النصارى فى ساحة القتال وانهزموا فى معترك الأديان ، ربحوا ملكاً عظيماً وخسروا ديناً جليلاً ، لأن الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ومسخه أهله ، وكان أكثر مسخاً له وتحريفاً هو قسطنطين الكبير حامى ذمار النصرانية ورافع لوائها . يقول « درابر » :

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره (٣٣٧ م) .

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث وَلّت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء — هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاءً باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غش .

وإن هذا الامبراطور الذى كان عبداً للدنيا والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين — النصرانى والوثنى — أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طُعِّمت ولُقِّحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها » .

الرهبانية العاتية :

فلم تستطع هذه النصرانية الملقّحة بالوثنية المشوهة التى قد فقدت روحها وجمالها أن تغيِّر من سيرة الروم المنحطة وأن تبعث فيهم حياة جديدة ، حياة دينية نقية طاهرة وأن تفتتح عهداً زاهراً فى تاريخ الروم ، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومة الوثنية ، وقد جُنَّ جنون هذه الرهبانية فى العالم النصرانى وتخطّى حدود القياس ، وإنا نلتقط أمثلة من كتاب تاريخ أخلاق أوربا وهو قليل من كثير جداً :

« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقى الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على

خمسة آلاف راهب وكان الراهب « سرابين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر » .

عجائب الرهبانه :

ظل تعذيب الجسم مثلا كاملا فى الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب ماكاريوس (Macarius) أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرصَ جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبيس (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح ، وقد عَبَدَ الراهب يوحنا (St. Jhon) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم فى النجاسات والدنس ، يقول الراهب اتهينس إن الراهب انتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب ابراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الإسكندرى بعد زمن متلهفاً : وا أسفاه ! لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات ، وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ويختطفون الأطفال ويهرّبونهم إلى الصحراء والأديار ، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم ، وعُرِفَ كبار من الرهبان ومشاهير التاريخ النصرانى بالمهارة فى التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن فى البيوت إذا رأين الراهب

أمبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس [١] .

تأثير الرهبانية فى أخلاق الأوربيين :

كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتوة والمروءة التى كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوبا ورذائل ، وزهد الناس فى البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجراءة وهجروها ، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعَمَّ الكنود والقسوة على الأقارب ، فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد ، فيخلِّفون الأمهات ثكالى والأزواج أيامى والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم فى الآخرة لا يبالون ماتوا أو عاشوا ، وحكى ليكى من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب [٢] .

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجا أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية ، وروى « ليكى » من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً [٣] .

عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة :

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شِرَّة المادية الرومية ، وكبحت من جماحها وغلوائها فى البهيمية والشهوات ، فإن هذا لم يكن ولا يكون فى الغالب وتأباه الفطرة الإنسانية ويكذبه التاريخ ؛ فإن الذى يوجد الاعتدال ويخفض

---

(١) اقرأ تاريخ أخلاق أوروبا « ليكى » History of Europeon Morals, by Leeky Chapter IV.

(٢، ٣) History of Europeon Morals. Part II Chapter IV "from Constantive to Charlemagn.

من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحى الدينى الخلقى الحكيم الذى يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة والذى لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية ، بل يوجهها توجيهاً نافعاً ، فإنها لا تزول ولكن تميل من شر إلى خير ؛ وهكذا فعل الإسلام ، وهكذا فعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد صرف شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل وأخذ الثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الله ، وصرف تبذيرهم وسماحتهم إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وشغلهم عن الجاهلية بالدين الإسلامى ، وأبدل الشىء بالشىء ، وأعطى النفس حقها من النشاط والترويح ، فإن النفوس كما قال عالم من علماء المسلمين لا تترك شيئاً إلا بشىء ، وإن النفوس قد خُلِقَت لتعمل لا لتترك [١] . وإن الأنبياء قد بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها [٢] . قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال : ماهذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر [٣] وعن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعندى جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بماتقاولت به الأنصار يوم بعاث قالت وليستا بمغنيتين ، فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك يوم عيد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا . وفى رواية أنه قال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد [٤]

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه ، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت فيه

---

(١) من كلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية م ٧٢٧ فى كتابه اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ١٤٣ .

(٢) ابن تيمية فى كتابه النبوءات .

(٣) رواه أبو داود بإسناده عن أنس وأحمد والنسائى .

(٤) حديث متفق عليه .

كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة ، ثم تخلصت منه وثارت عليه ولم تقدر النصرانية بإسرافها فى الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم ، وتمسك بضبع المدنية الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردى ، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو فى الزهد والرهبانية تسيران فى البلاد النصرانية جنباً إلى جنب . بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة فى الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة ، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامّة فى المدن والحواضر .

بين الرهبانية العاتية والمادية الجامحة :

يصور « ليكى » ما كان عليه العالم النصرانى فى ذلك العصر من التأرجح بين الرهبانية والفجور :

« إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق فى مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والمسابقة فى زخارف اللباس والحلى والزينة في حدتها وشدتها ، كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى وإن المدن التى ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوّان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس ، وكان الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ولكنه أمن واطمأن ، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تُكفِّر عن جميع أعمال الإنسان ، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر فى ذلك عصر القياصرة ، ولكن الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة كانت تؤدى إلى انحطاط فى حرية الفكر والحماسة القومية[1] .

---

(١) History of Eurpeon Norals. part II Chapter VI

الفساد فى المراكز الدينية :

ولم تكن الرهبانية والنظام الدينى السلبي إلا مصادمة للفطرة ، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحى وساعدتها عوامل أخرى ، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف فى المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية وربما تسبقها فى فساد الأخلاق والدعارة والفجور ، لذلك وقفت الحكومة المآدب الدينية التى كانت ترمى إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين ، وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التى وجدت فيها الخلاعة والفجور حِمًى ومرتعاً ، وأتهم القسوس بكبائر ومنكرات . ويقول الراهب جروم (Jarum) إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيما واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حِلّ المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا انوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال وأنفق نصيبه ودخله وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم [١] .

تنافس البابوية والامبراطورية

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية فى القرن الحادى عشر فاشتدت بعنف وحمى وطيسها ، وانتصرت فيها البابوية أولا حتى إن هنرى الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوى فى قلعة

---

(١) Conflict of Religion and Science .

كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال ، فسمح له بالمثول بين يديه ، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لابساً الصوف وتاب على يديه ، فغفر له البابا زلته . وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالا حتى ضعفت البابوية ، وبقى الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان ديني ودنيوى وبقوا يرزحون تحت نيرين إمبراطورى وبابوى .

وكان البابوات يتمتعون فى هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة ، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدما صحيحاً فى العلم والمدنية تحت ظل الدين لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون فى البلدان الأوربية وينزلون من أهلها فى جناب مربع وظل ظليل ، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون فى أمور سياسية مهمة ، ووجدوا فى كل بقعة أنصاراً لهم من ذوى الرأى والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم فى مهمات الدولة .

شقاء أوربا برجال الدين :

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التى دانت بها أساءوا استعمال هذا السلطان الهائل ، فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم ، وبقيت أوربا تتسكع فى دياجير الجهل والخرافة والانحطاط ، وأصيبت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم فى صميمها ، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية فى ألف سنة ، ولم يتضاعف عدد سكان انكلترة فى خمسمائة سنة . ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التى كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها ، ولم يشأ الكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء فى مرافقهم وغلاتهم فانتشرت الأوبئة والأمراض فى طول القارة وعرضها وتعرف من رحلة أنبيس سلوئيس الذى اشتهر بعد بلقب (Puis the Second) التى قام بها فى الجزائر البريطانية حول سنة ١٤٣٠ م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط فى المدنية وفقر مدقع .

جناية رجال الدين على الكتب الدينية :

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوروبا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانو يمثلونه أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى ، وإذا كان ذلك فى عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن على التحول والتعارض فإن العلم الإنسانى متدرِّج مترق ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرا على كثيب مهيل من الرمل . ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين ، فإن ذلك كان سببا للكفاح المشئوم بين الدين والعقل والعلم انهزم فيه الدين ، ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذى فيه الحق والباطل والخالص والزائف هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوربا أصبحت لا دينية .

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة ، بل قد دسّوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا فى ذلك كتباً وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية التى ما أنزل الله بها من سلطان ، الجغرافية المسيحية (Christian Topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفّروا كل من لم يدن بها .

اضطهاد الكنيسة للعلم :

وكان ذلك فى عصر انفجر فيه بركان العقلية فى أوربا ، وحطّم علماء الطبيعة

والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيّفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب ، وانتقدوها في صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب ، واعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة ، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوربا وكفّروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي ، أنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقِبُ — كما يقول البابا — أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول ، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة ، وانبثّ عيونها في طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه » ويقدَّر أنّ من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو ، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعني أن يحرق حيًّا ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غليلو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

ثورة رجال التجديد :

هنالك ثار المجدودون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حرباً لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحي ، — وبلفظ أصح الديانة البوليسية — حربا بين العلم والدين مطلقا ، وقرّر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ،

فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى ، و إذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزَّكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ؛ وجباه مقطّبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم .

تقصير الثائرين وعدم تثبتهم :

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته و يفرقون بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسئولية ، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة ، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر فى أمر الدين والتريث فى شأنه كغالب الثوار فى أكثر الأعصار والأمصار .

ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر فى الدين الإسلامى الذى كان يدين به أمم معاصرة لهم ، الدين الذى يخلصهم من هذه الأزمة و « يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحلّ لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . ولكن حمية الجاهلية والسدود التى أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام ، وعدم تجشم التعب والمطالعة ، وقلة الحرص على النجاة الأخروية ، والاهتمام بما بعد الموت ، زد إلى ذلك تفريط المسلمين فى التبشير الإسلامى ، ونشر الإسلام فى أوربا ، كل ذلك منعهم من الرجوع إلى الدين

الإسلامى والأخذ به فى ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق .

اتجاه الغرب إلى المادية :

وعلى كلّ فقد وقع المحذور وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر نفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً ببطء وعلى مَهَل ، ولكن بقوة وعزيمة ، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر ولا آمر ، وليس هنالك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف فى هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى ، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت ، وسموا هذا نظراً علمياً مجرداً ، وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقاً تقليدياً لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة ، واستهزأوا به واتخذوه سخرياً ، ثم انتهى بهم طريقهم الذى اختاروه وبحثهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شىء وراء الحركة والمادة ، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتى تحت الحسّ والاختبار ، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة ، فأصبح بحكم الطبيعة ، وبطريق اللزوم الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبيل المفروضات التى لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم .

إنهم لم يجحدوا بالله إلى زمن طويل ، ولم يكاشفوا الدين العداء ، ولم يجحدوا به كلهم ، ولكن منهج التفكير الذى اختاروه ، والموقف الذى اتخذوه فى البحث والنظر لم يكن ليتفق والدين الذى يقوم على الإيمان بالغيب وأساسه الوحى والنبوة ودعوته ولهجه بالحياة الأخروية ، ولا شىء من ذلك يدخل تحت الحس والاختبار ويصدقه الوزن والعد والمساحة ، فلم يزالوا يزدادون كل يوم شكاً فى العقائد الدينية .

افتضاح المادة فى الدور الأخير

ولكن رجال النهضة الأوربية ظلوا قروناً يجمعون بين النظر المادى الجاحد والحياة المادية ، والطقوس الدينية المسيحية ، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذى لا يزال فى العالم النصرانى ، أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضى البقاء ولو بالاسم على نظام دينى يؤلف بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى ، حتى افتضحوا فى الأخير وصعب الجمع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية ، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها وما فى الجمع بينهما من متاعب وضياع للوقت وتكلُّف هم فى غنى عنه ، فطرحوا الحشمة ورموا برقع النفاق .

جنود المادية ودعاتها

ونهض الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون فى كل ناحية من نواحى أوربا ينفخون صور المادية ، وينفثون بأقلامهم سمومها فى عقل الجمهور وقلبه ، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً ، تارة ينشرون الفلسفة النفعية ، وطوراً فلسفة اللذة الأبيقورية .

والسياسيون أمثال (ميكاويلى الفلارنساوى ١٤٧٩ م — ١٥٢٧ م) دعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية ، وقرروا أن الدين — إذا كان لا بد منه — قضية شخصية لا ينبغى أن تتدخل فى أمور السياسة والدولة ، وأن الدولة عندهم أعز وأهم من كل شىء ، وأن النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية ، وأن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة وإن كان يفيد الكنيسة ، لأنهم يتقيدون بأحكام الدين ، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكام الدين ومبادىء الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك ، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يتخلَّقوا بأخلاق الثعالب ، ولا يحتشموا من نقض العهود والكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان فى ذلك أدنى مصلحة للدولة

إلى غير ذلك ، ونجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من الوطنية والقومية التى خلفت الديانة القديمة .

وأحدث الأدباء والمؤلفون وأصحاب البراعة والقريحة والذكاء ، خصوصاً فى ثورة فرنسا وبعدها ، الثورة على الأخلاق القديمة ، والنُّظم الاجتماعية ، وزينوا للناس الإثم ، ونشروا دعوة الإباحة ، وإطلاق الطبائع من كل قيد والفرد من كل مسئولية ، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية ، وإرضاء الشهوات ، وانتهاب المسرات ، واستعجال الطيبات ، وغلوا وأسرفوا فى تقدير قيمة هذه الحياة وجحدوا كل شىء سوى اللذة العاجلة والنفع المادى الظاهر المحسوس .

نسخة صادقة من الحضارة اليونانية :

فأصبحت الحياة فى أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة فى يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين ، وعادت الطبيعة الأوربية (التى كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة .

ولا غرابة فى ذلك ، فالأوربيون اليوم ، إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان والسلائل الأوربية الأخرى ، ترى ديناً خلواً من الروحانية — كما لاحظ الدكتور « هاس » فى ذكر الحضارة اليونانية — وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعماله ، وكثرة اللهو والطرب فى الحياة ، كما ذكر « ليكى » عن الديانة اليونانية ، وهو نتيجة الوضع الدينى الذى وصلت إليه أوربا ، فإنه لا يتفق والخشوع لله والجد فى عبادته ، ونتيجة تلك النظريات والغايات التى وصل إليها علماء الطبيعة والحكمة فى أوربا وأعلنوها وتلقاها الجمهور بالقبول وحلّت محل الدين .

وترى كذلك تهافتاً على ملذات الحياة تهافت الظمآن على الماء والفراش على النار ، والحرص على اقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين ، كما وصف به سقراط الرجل الجمهورى اليونانى فى عصره .

وكذلك ترى شكا فى الدين واضطراباً فى العقيدة ، واستخفافاً بالنظام الدينى وطقوسه وتقاليده ، كما رأيت فى روما بعد التنور .

ديانة أوربا اليوم المادية لا النصرانية :

فمما لاشك فيه أن دين أوربا اليوم الذى يملك عليها القلب والمشاعر ويحكم على الروح هو المادية لا النصرانية ، كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربية واتصل بالأوربيين عن كثب لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضاً — ولم ينخدع بالمظاهر الدينية التى تزيد فى أبَّهة الدولة والتى يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعا ، ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس وحضورهم فى تقاليدها .

وقد بين ذلك فى وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى المهتدى محمد أسد السابق ذكره فى كتابه : « الإسلام على مفترق الطرق » قال :

« لاشك أنه لايزال فى الغرب أفراد يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى ويبذلون جهدهم فى تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل العادى فى أوربا ، ديمقراطياً كان أو فاشياً ، رأسمالياً كان أو اشتراكياً ، عاملا باليد أو رجلا فكرياً ، إنما يعرف ديناً واحداً ، وهو عبادة الرقىّ المادى والاعتقاد بأنه لا غاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل ، وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا « الدين » فهى المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيمياوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقماً قياسياً ، ونتيجة هذه النهامة للقوة ، والشره للذة ، النتيجة اللازمة ظهور طوائف متنافسة مُدَجَّجة بالسلاح ، والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما فى جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة

فى الفائدة العملية ، والمثل الـكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادى لا غير[١] » .

« إن الحضارة الغربية لا تجحد الله فى شدة وصراحة ، ولـكن ليس فى نظامها الفـكرى موقع لله فى الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه[٢] » .

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادة على مركز الدين فى الحياة الأوربية ومدى تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوربا إلى الشرق الإسلامى ، فها هنا شهادة أصرح منها وأدل على اضمحلال الدين الرسمى فى أكبر مراكزه ، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين فى « لندن » وكُتَّاب الإنـكليزية البارزين ، قال الأستاذ جود (Joad) رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن فى كتابه : (Guide to modern wickedness) :

« سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم فى أوائل العقد الثانى من أعمارهم كم منهم مسيحى بأى معنى من معانى الـكلمة ، فلم يجب بنعم إلا ثلاثة فقط ، وقال سبعة منهم إنهم لم يفـكروا فى هذه المسألة أبداً ، أما العشرة الباقية فقد صرَّحوا أنهم معادون للمسيحية ، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية و يدين بها و بين من لايؤمن فى هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة ، نعم إذا وُجِّه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين ، كانت الأجوبة مختلفة ، بناءً على ذلك الذين يتفقون فى الرأى مع (Canon Barry) ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلا جداً ، فإنى لا أرى لرأيه هذا مؤيداً ومبرِّراً إلّا أن يكون ذلك رغبته وهواه ، فإن الأهواء كثيراً ما تخلق الأفـكار ، ولـكنها لا تولد الشهادات والوثائق ، وإن الأحوال والآثار فى هذه البلاد لتدلُّ على أن الـكنيسة النصرانية ستموت فى القرن الآتى ، وإليك ما يؤيد هذا الرأى نقلا من صحيفة يومية :

---

(١) Islam At the Cross Roads P. 50 Fifth Edtion.
(٢) Islom At the Cross Roads P. 40.

اخترع رجل فى السابع والسبعين من عمره طريقة يحوّل بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعى واللدائن وأوراق النقد الثمينة ، وإن آلته قد نصبت فى (Cardiff factory) وفى ثمانية مصانع أخرى وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش فى ضنك من العيش .

ويختم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة ، ولا أجمل منها لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال (كينين بيرى) وغيره فليسمع من له أذنان [1] » .

ويقول هذا المؤلف فى كتابه الثانى (Philosophy for our Times) :

« لم يزل سائداً على عقلية انكلترا منذ قرون شره المال والتملك ، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل فى حياة البلاد وأكبر باعث على العمل ، لأن الثروة وسيلة للتملك ، وضخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان ، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية ، وفى بعض الأحيان من منابر الكنائس فى كل عام وشهر — التحريضات على جمع المال واقتنائه والإقناع بأن الأمة المتمدنة هى التى ارتقت فيها عاطفة الشره والتملك .

إن هذه العبادة للمال تناقض عقائدنا الدينية ، لأن الدين يمدح الفقر ويذم الغنى ويقول إن الفقير أقدر على الصلاح من الغنى ، ومع أن الحكمة والنعيم الدينى متفقان على أن الفقر أوفق لعبادة الله ودخول الجنة ، ولكن الناس لم يرغبوا إلى تصديق الدين فى ذلك والعمل بأحكامه ، ولم يزالوا يؤثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنة الموعود ، لعلهم يظنون أنهم إذا تابوا فى آخر عهدهم بالدنيا فإنهم يحرزون حسنى الآخرة ، كما ظفروا بحسنى الدنيا بأموالهم المودعة فى المصارف .

وقد أعرب عن فكرتهم هذه (Sammuel Butler) فى كتابه بقوله : (إن بعض المؤلفين يقولون إنا لانستطيع أن نجمع بين عبادة الله وعبادة المال ، وأنا أسلّم أن

---

(١) Guide to Modern Wickedness. P. 114—115

الأمر ليس بميسور ، ولـكن متى تـكون المهمات فى الدنيا ميسورة سهلة ؟ .

فمهما اختلفنا فى المبادىء ، فإن الحقيقة الراهنة أن كلنا راسخ فى تقليد بتلر وأتباعه ، فنحن مشغوفون بحب المال ، وعقيدتنا أن الثروة هى المقياس الصحيح لعظمة الفرد والحـكومة ، كانت سبباً لظهور مبدأين لهما الأهمية التاريخية الـكبرى :

أحدهما مبدأ عدم التدخل الاقتصادى الذى كان سائداً على القرن التاسع عشر ، ويدّعى أصحاب هـذا المبدأ أن الإنسان يبنى عمله على أعظم نفع يجلبه ، وأن ليس الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية ، بل الالتذاذ بالثروة .

والمبدأ الثانى الذى يسود القرن العشرين هو مبـدأ التنظيم الاقتصادى المنسوب إلى ماركس ، ويقوم هـذا المبدأ على أن نظام الإنسان الاقتصادى إنما يتأسس على حوائج الإنسان المالية ، وهذا النظام هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحـكومة ، ولم يكن هذان المبدءان لينالا القبول الذى نالاه لولا شغف الناس فى بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به » .

ويقول فى مكان آخر من هذا الـكتاب :

« إن نظرية الحياة التى تسود على هذا العصر وتحكم عليه : هى النظرية فى كل مسئلة وشأن من ناحية المعدة والجيب (StomaCh and pocket view of life) .

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور (Jhon Gunther) تمثيل هذه النفسية فى كتابه فى داخل أوربا (Inside Europe) بقوله :

« إن الإنجليز إنما يعبدون بنك انجلترا (Bank of England) ستة أيام فى الأسبوع ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الـكنيسة » .

مظاهر الطبيعة المادية فى أوربا :

إن هؤلاء الذين لايؤمنون بحياة أخرى ولايعتقدون وراء اللذة والتمتع بالحياة والعلو فى الأرض غاية عليا ، ولايذكرون الله إلا نادراً ، ولايرجون له وقاراً ، كيف يرجى منهم أن يتضرعوا إلى الله إذا مسهم الضر ، ويخبتوا إليه ويُنيبوا إذا دهمهم

الخطر . كما ذكر الله عن المشركين الذين كانوا يؤمنون بالله : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) ولكن هؤلاء بإمعانهم فى المادّية والتمسك بالأسباب الظاهرة والتعلل بها واستغنائهم عن الله ، قد وصلوا من القسوة والغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقوله عز وجل : (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) فلا تكاد تشعر فى خطب الزعماء والوزراء فى أوربا برقة قلب وانكساره وإخبات إلى الله فى أدهى ساعات الحرب وأمرّها ، ولا تشاهد شيئاً من ذلك فى أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه ، ويعدّ ذلك مفكرو الغرب وأدباؤه من باب التجلد وقوة القلب وإباء الضيم ، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال السياسة فى البرلمان الإنجليزى بأن رجال الشعب الإنجليزى لم يستسلموا للحوادث والنوازل ، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو فى سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم ولم يؤخّروا أدوار الرقص والغناء ، وطيارات اليابان تمطر المدينة شآبيب القنابل ، ويحكى هندى عن سهرة شهدها قال : « بينما نحن فى الرقص إذ سمعنا الإنذار بالغارة الجوية فساد الهدوء فى المكان ، ثم قال أحد أصحاب المجلس : ماذا ترون ؟ هل يستمر الرقص أم يؤخر ؟ فأجابت فتاة : بل نستمر راقصين ، وهكذا كان ، ودوت الحارة فضلا عن النادى الذى كنا فيه بالأغانى [١] » ، ويقول : « من العادات اليومية أنه يعلن فى السينما : تبدأ الغارة الجوية ولكن يستمر هذا الفصل ومن أراد أن يذهب إلى المخبأ فطريقه أسفل إلى اليسار . ولكن الناس يستمرون جلوساً ولا أحد يبرح من مكانه ويبدأ الفصل [٢] » ويقول كاتب انجليزى تعليقاً على صورة نشرت فى (Statesman) الصحيفة الإنجليزية اليومية الكبرى فى الهند فى ٢٤ من يناير ٤٢ م « من الغريب أن أجمل التمثيليات

---

(١) الغارات الجوية لأغا محمد أشرف الدهلوى ص ٧١ .

(٢) أيضاً ص ٧٠ .

إنما ظهرت أيام الحروب الكبرى فى التاريخ ، كذلك الشأن فى بريطانيا اليوم فالناظر يرى فى الملاهى والسينما والتمثيلات والصور مالم يكن يرى أجمل وأبدع منها قبل الحرب والمتفرج يجد فى ملاهى لندن كل مايسليه ويُرضى ذوقه » وفى عدد آخر من هذه الجريدة الصادر فى ١٦ من ديسمبر ٤٣ م « إن صناعة الأفلام فى لندن ولشبونه وموسكو إلى تقدم وفى ازدهار » .

ولاتجد مثالاً لهذا التجلد والعكوف على اللذة واللهو فى أشد ساعات الحرج وفى آخر ساعات العمر إلا فى يونان وروما فى العهد القديم .

وقد روى مراسل روتر كيف استقبل المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية العام المقبل وودع العام الراحل وذلك فى يوم عصيب من أيام الحرب يلجأ فيه الإنسان إلى الله ويفيق السكران ويخشع القاسى ، وإليك نص البرقية :

« واشنطن ، اليوم الأول من ينـاير (عام ١٩٤٢ م) البارحة لما كان العام الجديد يلتقى بالعام المنصرم وكان المستر تشرشل رئيس الوزراء مُسافراً من كندا إلى الولايات المتحـدة فى قطار رسمى خرج رئيس الوزراء مستصحباً سير شارليس بورتل بغتة ودخل مطعم القطار والسيجار فى فمه وكاس شمبنية فى يده ، وتعجب ممثلو الصحف الذين كانوا سائرين معه . تناول المستر تشرشل الكأس مبتسما وقال : « باسم عام ١٩٤١ م ذلك العام القائد إلى الاجتهاد والتعب والفتح » فى ذلك الوقت لَفَظَ العام الراحل نَفَسَه الأخير وتنفس العام الجديد وأعلنت الساعة بوفوده وهنّأ الصحفيون ورؤساء القطار المستر تشرشل ، وأخذ رئيس الوزراء يد سير شارليس بورتل بيد ، وأخذ يد كاربورل هارنر بيده الأخرى وأخذ كل واحد بيد الآخر وبدأوا يغنون فى رقصة وانطلق المستر تشرشل إلى الباب وقال: ليهنكم جميعاً ورزقنا الله الفتح ، وجعلت الجماعة تغنى فى حدة وتُصفِّق ، وخطّ رئيس الوزراء حرف V وانصرف إلى عربته سعيدا مسرورا » .

قارن هذه الطبيعة المادية بالنفسية الدينية وتعاليم الدين وعمل المتدينين وسيرتهم

فى الحروب والأخطار ففى القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وفى سيرة ابن هشام فى وقعة بدر الكبرى قال ابن إسحٰق : ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ليس معه غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ماوعده من النصر ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد .

والمادية لأسباب حتمية طبعية وتاريخية وعلمية قد أصبحت شعار الحضارة الغربية والحياة الغربية منذ عهد عريق فى التاريخ ، ولم تزدها النشأة الجديدة والنهضة العلمية والسياسة فى أوربا إلا حِدَّة وقوة ، وقد لاحظ هذا الامتياز كثير من علماء الغرب والشرق ، فمن علماء الشرق الأستاذ الألمعى الرحالة ذو النظر الثاقب عبدالرحمن الكواكبى فى مستهل هذا القرن ؛ فقد قال فى كتاب طبائع الاستبداد :

« الغربى مادى الحياة قوى النفس شديد المعاملة حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شىء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التى نقلتها له مسيحية الشرق ، فالجرمانى مثلا جافى الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ، ويرى كل الفضيلة فى القوة وكل القوة فى المال ، فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال ، واللاتينى منه مطبوع على العُجب والطيش ، يرى العقل فى الانطلاق ، والحياة فى خلع الحياء ، والشرف فى الزينة واللباس ، والعز فى التغلب على الناس » .

وهذا تصوير صادق للطبيعة الأوربية وتحليل صحيح للنفسية الغربية ، ولا نظن المرحوم الكواكبى قد تحامى الكلام على غير الجنسين الألمانى واللاتينى إلا تفادياً من الوقوع فى العنت فجعل الألمانى واللاتينى مثلا لسائر الأوربيين .

الغايات المادية للحركات الروحية العلمية :

وترى هذا الروح المادى فى جميع نُظُم أوربا السياسية والاجتماعية والخلقية التى ابتكرتها أو جددتها شعوبها لهذا العهد ، حتى أن الحركة الروحية التى شغلت الناس

كثيراً فى أوربا فى الزمن الأخير إنما روحها المادية ، فقد أصبحت صناعة وفناً كسائر الصناعات والفنون فى أوربا غايتها مشاهدة عجائب إقليم الروح والاطلاع على أسرارها والتحدث إلى أرواح الموتى وترويح النفس والتلهّى ، وليست من تزكية النفس وتصفية القلب والخشوع لله والعمل الصالح والاستعداد للموت والصبر على مكاره الحياة وهضم النفس فى شىء ، خلافاً للحركة الروحية والتصوف فى الشرق الإسلامى .

وكذلك الأعمال التى يضحّى فيها الناس بنفوسهم وأرواحهم فى الغرب إنما ترجع فى الغالب إلى غايات مادية كحسن الأحدوثة وانتشار الصيت وخلود الذكر فى التاريخ والتبريز على الناس وأن يتمجَّد به شعبه ويفتخر ويتشرف به وطنه ويغتبط ، خلافاً للأعمال التى يُبتغى بها وجه الله ، فالمسلم يخاف أن يشوب عمله شىء من الرياء والسمعة فيحبطه ويسمع قول الله تعالى : « هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم القيامة وزناً » ، وقوله عز وجل : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثورا » وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل الذى يقاتل شجاعة ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمةُ الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لغيرك فيه شيئاً » واجتهاد الصالحين من هذه الأمة فى إخفاء عبادتهم وصدقاتهم معروف فى كتب التاريخ والسير .

التصوف المادى الغربى ووحدة الوجود الاقتصادية :

وقد بلغ النظر المادى والفكر المادى فى أوربا درجة الاستغراق فيه والفناء ونسيان ما سوى القيم المادية ، ولنضرب بذلك مثلا بكارل ماركس ١٨١٨ — ١٨٨٣ م مؤسس الفلسفة الشيوعية .

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادى هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادى ، هو يقول إن فى كل عصر وفى كل دور من أدوار التاريخ طريقة خاصة للإنتاج الصناعى وعلى وفقها تتعين العلاقات الاجتماعية ، ولكن بعد قليل لا تبقى هذه العلاقات الاجتماعية متوافقة متناسبة مع طرق الإنتاج ويجتهد بعض الناس لتشكيل هذه العلائق تشكيلا جديداً ، وهذه هى التى تعرف فى التاريخ بالانقلابات والثورات ، والمؤرخ يجهل ماهيتها ولكن لا غرابة فى ذلك ، فإن الذين يشتركون فى هذه الثورات قد لايشعرون أنفسهم بالغاية التى يقاتلون لأجلها ، ولكن يمكن لنا أن نحل هذه الألغاز ونعلم أن الارتقاء السياسى والتعديلات والتحسينات فى النظم السياسية وما يطرأ عليها من التغيير والتطور ليست إلا صوراً جديدة للعلائق الاجتماعية تظهر لتجعل هذه العلائق متناسبة متوافقة بطرق الانتاج الجديدة من جديد ، ولما كان الاختلاف بين طرق الإنتاج الصناعى والعلائق الاجتماعية التى تقوم عليها مستمرا فيكون الجهد لتطبيقها مستمرا أيضاً ، وإذا تجاوز الاختلاف واشتد ظهر فى شكل ثورة ، ولكن لاينبغى لنا إذا لم تكن الاختلافات واضحة أن ننفى وجودها وننكرها ؛ والاختلاف بين مناهج الإنتاج الصناعى والوشائج الاجتماعية يظهر فى حرب الطبقات ، لأن جميع طبقات الاجتماع إنما هى أجزاء النظام الاقتصادى ، ويستنتج من ذلك كارل ماركس أن التاريخ البشرى غير العهد الذى كانت الحياة البشرية فى طفولتها ليس إلا قصة حرب الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وهكذا جحد الرجل جميع نواحى البشرية غير الناحية الاقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملا من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات فى التاريخ لم يكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً فى سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادى وطرق الإنتاج الصناعى ، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حرب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق

الإنتاج واجتهدت الأخرى فى أن تنافسها وتتناول قسطها أو أن تنظمها من جديد فوقعت الحرب ، وكانت كذلك فى رأيه بدر وأحد والأحزاب والقادسية واليرموك ، ووقائع ومعارك حفظها التاريخ .

فهذا هو كما ترى التصوف المادى الغربى ، وهذه هى فلسفة وحدة الوجود ، وحدة وجود الاقتصاد ، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الدينى والتأله نفى المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شيء سوى الله ، وهتفوا فى سُكرهم وغلبة الحال عليهم : لا موجود إلا الله ، ولما كان المفكرون الأوربيون إنما تغلبهم المادية نفوا وجود كل شيء سوى الناحية الاقتصادية وهتفوا لا موجود إلا البطن والمعدة . إن صوفية الشرق كانوا يرون الإنسان ظلا ربانياً ، أما الماديون فى الغرب فلا يرونه إلا وجوداً بهيمياً حيوانياً .

نظرية داروين وتأثيرها فى الأفكار والحضارة :

وساعدهم فى وجهة نظرهم هذه فى جميع مسائل الإنسان ، وزاد الطين بلة النظرية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر عن ارتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات ، لم يزل يجتاز بمرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر من امبيا (Amoeba) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعى ، وزعيم هـذه النظرية وبطلها دارون الذى ظهر كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) سنة ١٨٥٩ م فـكان حديث النوادى والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل ، وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق فى المسـائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفـكر وتصرف نظر الإنسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسائله وفى تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الـكون سائر بغير عناية إلٰهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية ، وأن لا علة فى الـكون سوى السنن الطبعية ، وأن الموجودات ترتقى من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليـا بعمل فطرى تدريجى عار من العقل والحـكمة ، وأن

الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم بل هو نتيجة نواميس طبعية انتهى بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبعى الذى هو سائر فى السكون إلى إنسان ناطق ذى شعور .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل فى المبادىء والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله ؛ فلا غرابة إذاً إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لهـا كل حساب ، وخافوا على مصير الدين فى أوربا .

يقول الأستاذ جود فى كتابه :

« يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذى فاجأ أجدادنا عند ما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون ، وعند ما جاءت النتائج أن دارون أثبت — أو يظن أنه أثبت — أن عمل ارتقاء الحياة على هذا الكوكب (الأرض) لم يزل مستمراً متواصلا من ظهور الأمبيا (Amoeba) ، وفرخ البحر (Jelly Fish) الأولى إلى أشكاله النهائية العليا وهى أرقى أشكال الحياة وأعلاها ، فلم يزل عمل الارتقاء من الأمبيا إلى طورنا متواصلا غير منقطع .

بالعكس من ذلك أن الذين عاشوا فى عصر فكتوريا إنما أرشدوا أن الإنسان خلق مستقل ، وهو فى الحقيقة نوع من مَلَك منحط ، أما إذا كان دارون مصيباً فالإنسان لم يكن إلا قرداً راقياً ، فعزَّ على أهل عصر فكتوريا أن يكون الإنسان قرداً راقياً بدل أن يكون مَلَكا منحطاً ، وماطابت لهم هذه النظرية واجتهدوا أن يخلِّصوا الإنسان من هذه السبة التى لحقتهم من هذه العقيدة فى الإنسان واقترحوا لذلك اقتراحات[١] » .

إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء :

ولكن الجمهور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول — رغم ما فيها

(١) Guide to Modern wickedness. p . 235 – 236 .

من ضعف ونقص من الوجهة العلمية — فهموها أو لم يفهموها — وكأنّ الأذهان كانت متهيئة لمثل هذه النظرية ، وكأن الناس وجدوا فيها منافساً للدين ورجاله ، وصعب على رجال الدين أن يعارضوا هذا التيار الجارف من أفكار الناس وأذواقهم والسيل العرم من المنشورات والمحاضرات ، فوضعت الكنيسة أوزارها فى هذه الحرب حتى إذا مات دارون سنة ١٨٨٣ م منحته الكنيسة الإنجليزية أكبر شرف تمنحه لإنسان ، وذلك بأنها أذنت بدفنه فى ويست منستر ايبى محل دفن الرجال الدينيين .

وكان تأثير هذه النظرية بعيداً عميقاً فى الأفكار والحضارة والأدب والسياسة تراه وتلمسه فى أخلاق الناس ، وفى نزعات الرجوع إلى الفطرة وإلى العهد الذى كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عارياً حراً ، وفى تعيين المثل الكامل للإنسان ، وفى جميع الأعمال والأخلاق التى لا تصدر إلا على تسليم أن الإنسان إنما هو حيوان راق ، وفى فساد الحياة المنزلية الذى يعبر عنه المستر شبرد أحد علماء الإنجليز بقوله : « لقد ظهر فى إنجلترا جيل من الناس يجهل الحياة المنزلية جهلا باتاً ، ولا يعرف غير حياة القطعان من البهائم » .

من جنايات المادية :

وكان من نتائج هذه المادية الجارفة ، والتربية اللادينية التى ليس فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عز وجل ، والإيمان بالآخرة أن أصحاب المراكز الكبيرة ، ورجال السياسة والمسئولية يرتكبون فى بعض الأحيان جنايات لا يتنزل إليها أكبر الآثمين . وذلك لمصلحة سياسية وهمية لبلادهم وأمتهم أو لجاه شخصى أو ربح مالى . فمن أغرب ما روى فى تاريخ البشر من القسوة والظلم ، أن الإنجليز قد أوقعوا فى بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية ، لأنهم منعوا استعمال القوارب التى يحصد الناس عليها مزارع الأرز — وهو غذاء بنغال — واحتكروا الحبوب فى مقدار عظيم للجند ولم يمكنوا الناس منها حتى فسدت وضاعت ، ومات مئات ألوف من الناس جوعاً

والحبوب وفيرة فى البلاد والمواصلات ميسورة والقطر غادية رائحة ، والهند بلاد مخصبة تستطيع أن تغذى بلاداً أخرى . وذلك كله لما توقعوه من إقبال الناس على التجنّد ، وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتى فى إدارة البلاد .

وقد تغافل لورد ماونت بيتن حاكم الهند العام سنة ١٩٤٧ م عمّا يدبَّر من الفتك بالمسلمين فى دهلى وبنجاب الشرقية ، فقد اتصلت به أنباء المؤامرات والخطط التى كانت تبيت ضد العنصر الإسلامى فى هذه المنطقة ، وأنذره الخبراء بوقوع اضطراب طائفى هائل ، فنام على كل ذلك انتقاماً من أن المسلمين لم ينتخبوه حاكما عاماً لباكستان كما فعل أهل الهند ، ولتكون هذه الاضطرابات الطائفية والحروب الأهلية حجة على عدم أهلية أهل البلاد للاستقلال ، وكونهم عيالا على الإنجليز فى الأمن والنظام ، فكان نتيجة ذلك تلك المجزرة البشرية الهائلة التى عقمت القرون أن تلد مثلها .

ومن ذلك أن « ريد كلف » الذى اختاره الفريقان الهنديان حكما فى مسئلة بعض مدن بنجاب هل تنضم إلى هندوستان أو إلى باكستان حكم حكما جائراً ، فكان نتيجة ذلك جلاء المسلمين من فيروز بور وكورداسبور ، ومتاعب عظيمة ، وخسائر كبيرة فى النفوس والأموال .

أما تأييد ترومان للصهيونية ودولة إسرائيل فى فلسطين ومعارضته للقضية العربية التى لا غبار عليها ، لأجل أن يكسب ود اليهود ويتمتع بنفوذهم السياسى والمالى والصحافى وليكسب انتخابه ، وتعاميه عن براهين الدول العربية الساطعة ، فقضية تنبىء عن ضعف أخلاق العظماء فى أوربا وأمريكا ، ودوران الحياة السياسية على الفوائد لا المبادىء .

الفصل الثانى

الجنسية والوطنية فى أوربا

انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية :

قدمنا أن الوطنية والقومية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافى من خصائص الطبع الأوربى الذى سرى فى العنصر الأوربى مسرى الروح ، وجرى منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثانية له ، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة ، لأنها على علاتها ، ورغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل ، لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح ، وفيها أثارة من علمه ، والدين السماوى مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصرانى عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنعرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣ — ١٥٢٦ م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية ، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح فى عمله نجاحاً لا يستهان بقدره ، وانهزمت الكنيسة اللاتينية فى عاقبة الأمر فانفرط عقدها ، استقلت الأمم ، وأصبحت لا تربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد استقلالا فى شؤونها وتشتتاً ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها فى أوربا قويت العصبية القومية والوطنية ، وكان الدين والقومية ككفتى ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة

منافسته راجحة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزى المعروف لورد لوثين Lord Lothian السفير البريطانى السابق فى أمريكا فى خطبته التى ألقاها فى حفلة جامعة عليكرة فى يناير سنة ١٩٣٨ :

« لما قضت حركة لوثر التى تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية ، انقسمت هذه القارة فى إمارات شعبية مختلفة أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطراً خالداً على أمن العالم » .

وكان نتيجة الانحطاط الدينى وانخفاض مبادىء الدين والأخلاق رجحان كفة الوطنية والجنسية ، يقول لورد لوثين فى نفس هذه الخطبة :

« إن الدين الذى هو المرشد اللازم للانسان والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية والشرف المعنوى للحياة البشرية ، كان نتيجة الانحطاط فى سلطانه أن فتن العالم الغربى بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات ، وآمن — بتأثير العلوم الطبيعية — أن الرقى المادى هو الغاية العليا والوطر الأكبر ، ولا يزال يزيد هذا الأمر فى مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها ، وكان من نتائج ذلك أيضاً أنه صعب على أوربا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقاً ينقذها من القومية ، داهية هذا العصر الكبرى[1] » .

طرائق العصبية الجنسية فى أوربا :

كان نتيجة انحلال النظام الدينى وانتعاش النعرة القومية أولا أن أصبحت أوربا معسكراً واحداً ضد الشرق كله ، وخطّت خطًّا فاصلاً بين الغرب والشرق أو بين أوربا و بين ماسواها من القارات والأقاليم ، والجنس الآرى و بين ماعداه من أجناس البشر ، يعد أن كل مادون هذا الخط له الفضل على كل ما وراءه من نسل وشعب

(١) Convocation Adress of Lord Lothian at Muslim Unversity Aligarh.

وثقافة وحضارة وعلم وأدب ، وأن الأول خلق ليسود ويحكم ، والثانى ليخضع ويدين والأول ليبقى ويزدهر ، والثانى ليموت ويضمحل ، وهذا بعينه ما امتاز به اليونان والروم فى عهدهم ، فقد كانوا لا يعدون مهذبين إلا أنفسهم فقط ، وكانوا يسمون كل شىء غريبا خصوصاً كل ما كان واقعاً فى شرق المحيط الإطلانتيكى بربريا وهذه هى النفسية الأوربية التى أعرب عنها موسولينى بقوله فى أغسطس سنة ١٩٢٥ وتناقلته الصحف :

« إذا كانت أوربا لم تعد تقدر على أن تقوم بمهمتها الاستعمارية فى العالم فقد انقضى دورها وحان حينها — فواعجباً هل آن للوحوش والأحباش أن يرفعوا القضية فى عصبة الأمم ضد الأمم الراقية التى أحدثت انقلابا عظيما فى العالم البشرى [١] » وقال هتلر فى كتابه الشهير كفاحى :

« إن كل ما يوجد على وجه الأرض من ثروة غالية وتراث مجيد من العلوم والآداب والبدائع الفنية إنما أنتجته عبقرية أمم معدودة وإبداعُها ، وهذه الأمم كلها تنحدر من سلالة واحدة .

وإذا قسمنا النوع البشرى فى ثلاثة أقسام (١) الذين ينتجون الحضارة والعلم (٢) والذين يحفظونها (٣) والذين يبيدونها فليس النوع الأول إلا النسل الآرى » .

كان نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى إلى أجنبى ، أن صار بعض الشعوب الأوربية ينظر إلى الدين المسيحى وإلى المسيح كطارىء ونزيل يريدون أن ينفوه من بلادهم ويتبرأوا منه ، يمثّل ذلك ما قال أحد المعلمين فى ألمانية وهو البروفسور اترنى :

« لأى شىء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحق ؟ ينبغى أن يكون إلهنا أيضاً ألمانياً » .

---

(١) نقلا من مجلة سنج الأردية .

ونشأت فى ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من بنى إسرائيل ، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية ، وظهرت فى ألمانيا نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التى كان يعبدها الشعب الألمانى فى عهده القديم .

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها القديم ألمانيا .

فيعتقد الناس فى روسيا أن أغلب الاختراعات الكبرى فى العصر الحديث إنما يرجع الفضل فيها إلى الروس .

فليس « لافوازييه » هو واضع القانون الخاص بتركيب الأجسام ، بل هو مدين بما ينسب إليه للعالم الروسى « ميشل لومونوسوف » وليس « لأديسون » فضل فى استخدام الكهرباء فى الإضاءة فقد سبقه « لووجين » الروسى بست سنوات إلى ذلك ، ونشرت جريدة برافدا : أن العلماء الروسيين توصلوا إلى اختراع التلغراف قبل مودس وإلى تسيير القاطرة البخارية قبل ستفنسن ، إلى غير ذلك من تحديات للتاريخ ليس الباعث عليها إلا العصبية الجنسية وتقديس « روسيا » .

عدوى الجنسية فى الأقطار الإسلامية :

ومما يدعو إلى الأسف والاضطراب ، أن هذه العدوى الجنسية قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية التى كان يجب وكان من المترقب أن تكون زعيمة لدعوة الإسلام العالمية ، حاملة فى عصرها لرسالة الأمن والسلام ، وأن تكون جبهة قوية ضد الجنسية والوطنية ، وذلك بانحلال الدين فى هذه البلاد ، وبتأثير الآداب الأوربية والحضارة الغربية ، فترى فى الترك النزعة الطورانية والدعوى إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الإسلامى الذى انتشر على أيدى العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة تشبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى

الأديان التى جاء بها الأنبياء من غير النسل الآرى والآداب السامية وثقافها ، فاعتقد بعض المفكرين فى تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارىء غريب لا يصلح للترك ، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامى ، تقول الفاضلة خالدة أديب هانم عن « ضياء كوك ألب » من كبار مؤسسى تركيا الجديدة أدبا وتهذيبا :

« كان ضياء كوك ألب يريد أن ينشىء تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين و بين أسلافهم الطورانيين ، فقد كان يريد أن يقوم بإصلاح مدنى بواسطة المعلومات التى جمعها عن التنظيمات السياسية والمدنية فى عهد الأتراك قبل الإسلام ، كان ضياء يعتقد و يؤمن بأن الإسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا ، ولا بد لنا من إصلاح دينى يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلى [١] » .

وهذه هى النفسية القومية التى عبر عنها شاعر عربى ، وهو الشيخ يوسف النبهانى ، فى بيته السائر عن الترك :

وما نقموا منا بنى العرب خلة ... سوى أن خير الخلق لم يك أعجما

ومما لا شك فيه أن هذه النزعة قد وُجدت فى الترك وكذلك فى الإيرانيين فى الزمن الأخير ، قال المرحوم الأمير شكيب أرسلان وهو الخبير الثقة فيما يتعلق بالترك فضلا عن العرب لطول مكثه فى تركيا وكان عضواً فى مجلس الأمة :

« وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية تخالف الفئة الأولى أى فئة تقول بالقومية العثمانية الإسلامية فى كل هذه النظريات ، وأشهر دعاتها ضياء كوك ألب وأحمد أغائف ، و يوسف أقشورا اللذان قدما من روسية ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحى رئيس وجاق « تورك بوردى » ، ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الأدباء والمفكرين ، وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً ، وأسبقها إلى الحضارة ،

---

(١) محاضرات خالدة أديب هانم فى الجامعة الملية بدهلى .

وأنهم هم والجنس المغولى واحد فى الأصل ، ويلزم أن يعودا واحداً ، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ، ولم يقتصروا منها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملى ، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين ، وإلى المجر والفنلانديين فى أوروبا ، وكل مايقال أنه ينمى إلى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف مايقول الأولون ، فهم ترك أولا ومسلمون ثانياً ، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا طوران ، وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكزية ليطبعوهم على الإعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم[1] » . . . وقال أيضاً :

« هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى اقتداء بالأمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذى قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة ، وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الإسلام — وهو الذى أخبرنى بذلك — إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ، ولكنهم اقتلعوها بالإسلام وافتخروا بأن الله لطف بهم وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات ، وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارئ تعالى وتتذاكروا عبادة الذئب الأبيض فيا للأسف .

---

(١) حواشى الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامى الجزء الأول ص ١٥٨ — ١٥٩ .

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم القديمة التي منها الكيومرتية أي تعظيم النور والتحرز من الظلمة ومن هنا جاءتهم عبادة النار ، ومنها فرقة زرادشت الذي كان يدعو إلى وحدانية الله ، ويقول إنه خالق النور والظلمة ، وإن الخير والشر إنما حصلا بامتزاجهما ، وإنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، إلى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس : كالثنوية ، والزردشتية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحة[1] — » .

الديانة القومية الأوربية وأركانها :

والخطوة الثانية في هذا الطريق أن أصبحت الشعوب والدول في أوربا الصغيرة منها والكبيرة عوالم مستقلة لا ترى العالم خارج الخطوط التي خطتها الطبيعة من جبال وأنهار ، أو خطتها بيدها من غاية سياسية واستعمار ، ولا تعترف بوجود الإنسان في غير منطقتها فلا تحترمه ولا تعرفه ، واتخذت نفسها إلهاً تدين له بكل ما يدين به العباد المخلصون من عبادة وتقديس وأضاحٍ هي دماء الآخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم ، وقتال في سبيله ، وتفان في طاعته ، ومحيا وممات لأجله ، وهذا الدين القومي يشتمل على شيئين : إيجابي وسلبي ، أما الإيجابي ، فهو الاعتقاد بأن الشعب أو الأمة فوق كل شيء ، وأفضل من كل شيء ، وأن الله — إذا كانت الأمة تعترف به وتعتقد ، أو ترى أن من المصلحة أن تستغل هذه الكلمة — لم يخلق أفضل من هذه الأمة ، ولا أنجب منها ، ولا أذكى ولا أقوى ولا أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم ، والرعاية للعالم منها ، وأنها أمينه ووكيله ووصيّه في الأرض ، ولم يخلق بلاداً أحب إليه من هذه البلاد ، ولا تربة أزكى من تربتها ، وهذا هو الدين القومي الذي لا يسمح لإنسان أن يعيش في بلاده حتى يؤمن به .

---

(١) حواشي حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ولا تختلف شعوب أوربا الحاضرة ودولها فى هذه الديانة القومية إلا فى الصراحة والنفاق ، وأن بعضها تقول وتفعل ، و بعضها تفعل ولا تقول ، فإن بذرة القومية والوطنية إذا ألقيت فى أرض فإنها لا تلبث أن تنشأ وتمد عروقها فى الأرض ثم تصير شجرة ، فدوحة تظلل الأمة ، ولا يمكن لشعب أن يؤمن بالقومية ، ثم لا يعتدى ولا يتطاول أو لا يريد أن يعتدى و يتطاول ولا يمقت الآخرين ، ولا يزديهم . كما لا يمكن أن يسرف الإنسان فى الخمر ، ثم لا يسكر ولا يهذى كما قال الشاعر :

ألقاه فى البحر مكتوفاً وقال له : إياك إياك أن تبتل بالماء

خصوصاً إذا كان العلم والأدب والشعر والفلسفة والتاريخ وحتى العلوم الطبيعية متعاونة على إنشاء العاطفة القومية والنعرة الشعبية والخيلاء الجنسية والفخر بالآباء والتعظّم بالماضى ، ولا يكون رادع من خلق ولاوازع من دين ، وتولى القيادة رجال لا يعرفون غير القومية والمجد القومى غاية ومرمى ، ومن مقومات هذه الحياة القومية التى لا تقوم بغيرها ، الكراهة والخوف ، وذلك هو الجزء السلبى فى دين القومية ، فإن الحماسة القومية لا تظهر ولاتبقى حتى يكون للشعب ما يكرهه وما يخافه ، فلايزال القائدون يثيرون الكامن من عواطفه ، ويذكون الخامد من حميته و يضربون على الوتر الحساس وهو الكراهة والخوف ، فلولاهما لانقشعت سحابة القومية وتراجع سيلها ، وقد حلّل ذلك الأستاذ جود تحليلاً فلسفياً نفسياً ، فقال :

« إن العواطف التى هى مشتركة والتى يمكن إثارتها بسهولة هى عواطف المقت والخوف التى تحرك جماعات كبيرة من الدهماء ، بدل الرحمة والجود والكرم والحب ، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما ، لاينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه و يوجدوا له من يخافه ، و إذا أردتُ أن أوحد الشعوب ينبغى لى أن أخترع لهم عدواً على كوكب آخر — على القمر مثلا — تخافه هذه الشعوب ، فلم يعد من دواعى العجب أن الحكومات القومية فى هذا العصر فى معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف

المقت والخوف ، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها ، وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومى[١] » .

الحل الإسلامى لمعضلة الحروب والمنافسات الشعوبية :

إن هذا الحل الذى قدمه الأستاذ جود لمشكلة الأمم ومعضلة الحروب والمنافسات الشعوبية حل عادل وتوجيه معقول ، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك فى عداوته وكرهه والمخافة منه . وتتعاون فى الحرب معه ، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع ، ولا يلزم أن يوجد لهما عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ ؛ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنسانى ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها ، وحق على كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ويتعاون مع بنى نوعه فى معاداته ومحاربته يقول القرآن : « إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وقد قسم الإسلام العالم البشرى إلى قسمين فقط ، أولياء الله وأولياء الشيطان ، وأنصار الحق وأنصار الباطل ، ولم يشرع حربا ولا جهادا إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا ومن كانوا فقال : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وهذه هى الحروب التى لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة الجمعاء فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) فى جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التى ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ، ودامت إلى السنة التاسعة على

---

(١) Guide to Modern Wickedness P. 150

ألف وثمانية عشر نفسا ١٠١٨ المسلمون منهم ٢٥٩ والكفار ٧٥٩[١] أما المصابون في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ الكونية فيبلغ عددهم على الأصح واحداً وعشرين مليون نسمة[٢] ٢١,٠٠٠,٠٠٠ عدد المقتولين منهم سبعة ملايين ٧,٠٠٠,٠٠٠ وقدّر المستر مكستن (Maxton) عضو البرلمان الإنجليزى أن المصابين فى الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩ . . . . . لا يقل عددهم عن خمسين مليوناً ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ وقد كلف قتل رجل واحد فى الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه ، أما مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات ١,٠٠٠,٠٠٠[٣] .

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء عاصمة للنفوس والأموال وفاتحة عهد السعادة والغبطة فى العالم ، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التى تدعى الحرب الكبرى فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة ، وإليك ما قال المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ :

« لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلا ، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفى سنة مشغوفا بالشر والإفساد والقتل والفتك ببنى نوعه ، والنهب والإغارة ، بل إن أكبر حرب فى التاريخ قد استنزفت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة ؛ وماذا يرى السيد المسيح يا ترى ؟ هل يرى الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء ؟ لا . بل يراهم يتهيأون لحرب أشد هولا من

---

(١) عولنا فى هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضى محمد سليمان المنصور فورى فى المجلد الثانى من كتاب سيرة رحمة للعالمين ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عدداً أقل من هذه الأعداد .

(٢) وقد حقق المستري — ه تاونسند E. H. Tawansend فى مقالة له نشرتها صحيفة هندو الإنكليزية اليومية (٣١ يناير ١٩٤٣ م) أن عدد المصابين فى الحرب الكبرى لا يقل عن ٣٧,٥١٣,٨٨٦ المقتولون منهم ٨,٥٤٣,٥١٥ .

(٣) من مقالة لتاونسند فى صحيفة هندو .

الأولى وأعظم فتكا وتعذيبا ؛ يراهم يتسابقون فى اختراع الآلات الجهنمية و يبتدعون وسائل للتعذيب[١] » .

وليس اشتغال هذه الشعوب بالعداوة والحروب فيما بينها ، وما هذه القومية والوطنية الخ إلا لانصراف هذه الشعوب عن عداوة عدوها الحقيقى ونسيانها له فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل ، وكما قال الشاعر الجاهلى :

وأحيانا على بكر أخينا ‏ ‏ ‏ ‏ إذا ما لم نجد إلا أخانا

فإذا عرفت عدوها وعرفت ضرره على نفسها ، وعرفت خطره وقوته كان ذلك مشغلة لها عن كل حرب وعداوة وشح ومنافسة وأحقاد وهمية وترات مصطنعة ، عند الحفيظة تذهب الأحقاد ، وهكذا جعل محمد صلى الله عليه وسلم من قبائل العرب المتعادية التى كانت سيوفهم تقطر من دمائهم كالأوس والخزرج فى المدينة ، و بنى عدنان و بنى قحطان فى الجزيرة ، والأجناس المتباينة فى العالم ، أمة واحدة ومعسكراً واحداً إزاء الكفر والجاهلية ، إذ جعل لها فى خارجها ما تكرههُ وتعاديه ، وهو الباطل والطاغوت ووكلاؤه وأنصاره ، وشغلها بحر به وقرأ : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » فنسيت أحقادها وتراتها ولم تتذكرها إلا لما انصرفت عن عدوها وتشاغلت عن قتاله ومعاداته فكانت حروب داخلية وفتن يعرفها الجميع .

دعاة القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة :

ولا يزال القوميون فى داخل البلاد وخارجها يزينونْ للشعوب الصغيرة القومية ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها ، و يمجّدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء ، وتُدل بنفسها وتظن أنها مانعتها حصونُها

(١) وقد صدقت فراسته ووقع تحت أعيننا ما تنبأ به وقد فاقت هذه الحرب الجارية الماضية فتكا بالأرواح ونسفاً للعمران وتدميراً للبلدان ووقائع تشيب لهولها الولدان وغلاء فى السلع وارتفاعاً فى الأسعار وأصابت الناس مجاعات شديدة فى كثير من الأقطار .

وما أعدت للحرب ، وتنقطع عن العالم وتتحرش أحياناً بالدول الكبيرة غروراً بنفسها ، أو تهجم عليها الدول فلا تلبث إلا عشية أو ضحاها ، وتذهب ضحية لقوميتها وانحصارها فى دائرة ضيقة ، ولا يغنى أولئك المسؤلون عنها شيئاً « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك » . كذلك وقع لبولنده و بلجيكا وهولانده ويونان ودنمارك ، وهكذا وقع لإيران والعراق فى الحرب الثانية .

مطامح الدول الكبيرة :

أما الدول الكبيرة فترى من واجب قوميتها أن تبسط سيطرتها على أكبر رقعة من الأرض وترفرف أعلامها على مساحات واسعة و إن كانت قفاراً أو صحارى وتكون لها مستعمرات وممتلكات فى قارات مختلفة ، و إن كان ذلك يكلفها جيوشاً وأموالا بغير فائدة جدية تعود عليها و يصعب عليها حراستها والقيام بشؤونها ، كل ذلك مما توجبه عليها شريعة القومية ، وليس لها غاية أخلاقية وثمرة أدبية غير ما تسميه المجد القومى والشرف القومى ، وقد شرح الأستاذ جود المجد القومى بقوله : « إن المجد القومى إنما يعنى أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغبته وهواه على آخرين إذا مست الحاجة ، ويكفى لشناعة ما يسمونه (المثل الكامل للشعب) وهو المجد القومى أنه يناقض الصفات الخلقية والفضيلة . إذا كانت بلاد لا تقول إلا صدقاً ، وتفى بوعودها وتعامل الضعفاء معاملة إنسانية فمستوى شرفها عند الأمم منحط . فالشرف كما قال المستر بلدون عبارة عن قوة تنال الأمة بها المجد والفخار وتستلفت إليها الأنظار وتشغل الأفكار ، ومعلوم أن هذه القوة التى تنال الأمة بها هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشعلة للنيران ، وعلى وفاء الشبان وولائهم للوطن ، الذين يحبون إلقاء تلك القنابل على المدن . فالشرف الذى يمدح لأجله شعب يناقض تلك الصفات والأخلاق التى يمدح بها الفرد ، فأرى أن الشعب يجب أن يعد همجياً رغير مهذب بالمقدار الذى يملكه من الشرف ،

إذ ليس من الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشرف بالخديعة والمكر والظلم [١] »

ويقول فى موضع آخر :

« إن الكبر — أكثر من الطمع — هو الذي يحمل الطبقة الحاكمة فى بريطانيا على اتباع خطط لا تتفق مع ما يتظاهرون به من حب الصلح والوئام ، دع رجلا يقترح على ولاة الأمر فى بريطانيا أن يهجروا قيراطاً من رمل من ممتلكاتها التى لا تغرب فيها الشمس ومن أشدها قحولة وجدبا ، تر المحافظين الأبطال فى انجلترا يقيمون العالم ويقعدونه سخطا وحنقاً ، وتر الصحافة الإنجليزية المعتدلة تتميز غيظاً إذ تعلم أن هؤلاء المحافظين ليسوا طماعين فقط بل هم مستكبرون معاندون [١] » .

منافسة الشعوب فى المستعمرات والأسواق :

وقد سبقت إلى هذا الاستعمار والامتلاك أمم وتخلفت أخرى ، ثم نهضت الأخيرة تنافسها وتطالب بأسهامها وتبحث لها عن مستعمرات وأسواق لبضائعها وشرفات تغرز عليها علم المجد والفخار ، وتعد بفضلها من الأمبراطوريات الكبار ، وقامت الأولى تدفعها وتحول بينها وبين ما تشتهى ، وتزعم أنها إنما تغضب للأمم الصغيرة ونصرة المظلوم ، ولكن كثيراً من الناس ، من أنفسها ومن الأجانب يشكون فى إخلاص هذه الأمم وفى صفاء طويتها وحسن نيتها . يقول الأستاذ « جود » :

« الإنجليزى — جاهلا أو متجاهلا للمسائل التى أدت إلى قسمة ضيزى للعمران ضاربا صفحاً عن سخط بعض الشعوب مثل اليابانيين — يعتقد أن الإنجليز أمة سلمية ويرمى اليابانيين بحب القتال والضراوة بالحروب . الإنجليز لا شك أمة سلمية ولكن مسالمتهم مسالمة لص قد اعتزل حرفته القديمة ، وقد أحرز شرفا وجاهاً بفضل غنائمه السابقة ، وهو يبغض الذين يدخلون جديداً فى حرفته القديمة ، عنده فضول أموال وغنائم لا يستهلكها ، ولكنه يلقب الذين يريدون أن يساهموا فى ذلك بهواة الحرب [٢] » .

Guide to Modern Wickednss. P. 153. (١)

Guide to Modern Wickedness. P. 180. (٢)

وكثيراً ما تنشب الحرب بين هذه الأمم السابقة إلى السيادة والتملك و بين الأمم المتطلعة لها الطامحة إليها ، ولـكن هذه الحرب لايصح قياسها على حرب تُشهر لردع الظالم والانتصار للمظلوم و إقامة القسط عملاً بقول الله عز وجل : « وَإِنْ طائفتانِ من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغِي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدلِ وأقسِطوا إن الله يُحِبُّ الْمُقْسِطين — (الْحُجُرات) » ، ولـكن هذه الحرب حرب شُحٍّ ومنافسة ، وحرب غيرة وحسد ، ما كانت جمعية الأمم (الفقيدة) التي كانت هذه الحروب تشهر تحت إشرافها ، ولا خليفتها « الأمم المتحدة » إلا كما قال الأمير شكيب أرسلان : مثل « العروض بحراً بلا دماء » ما وجدت إلا لتلبس الاعتداء حلة قانونيـة ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لايطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قويّ متجاوز . أو فى لفظ فقيد الإسلام الدكتور محمد إقبال : « جمعيـة لصوص ونبَّاشين تألفت لتقسيم الأكفان » . قال الأستاذ جود الإنجليزى :

« إن حرباً تشهر تحت إشراف عصبة الأمم ليست للعدل بين الأمم يقوم بها شرطة العالم للأخذ على يد الظالم وعقاب المعتدى ، ليست هذه الحرب إلا كفاحاً بين الطوائف المتنافسة فى القوة . الواحدة منها حريصةٌ على المحافظة على القسط الأكبر من ثروة العالم ومواردها والأخرى متهالكة على تحصيلها ، إن مثل هذه الحرب لاتختلف عن حروب نشبت بين الطوائف المتنافسة فى الماضى ، ولا عن حروب النمسا و بروسيا [1] ، وعن حروب السنوات السبع [2] وعن حروب نابليون ، وعن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . لاتختلف هذه الحرب عن هذه الحروب كلها إلا فى

---

(١) حرب منافسة وطمع اشتركت فيها فرنسا وأسبانيا وانجلترا وهولنده لتناول غنائم انتقصت فيها أطراف النمسا وممتلكاتها ونشبت على أثر وفاة فريدريك ملك النمسا وجلوس ابنته ميريا تهريسا على العرش بوصيته ورضا الدول سنة ١٧٤٠ وانتهت سنة ١٧٤٨ .

(٢) حروب اشتركت فيها فرنسا وروسيا و سويدن وأكثر إمارات الدولة الألمانية وبروشيا وانجلترا حماية لبعضها واعتداء على بعضها ابتدأت سنة ١٧٥٦ وانتهت سنة ١٧٦٣ .

الاسم . أما التذرع بأن هذه الحروب إنما نصبت للدفاع عن الديمقراطية وعن عصبة الأمم وضد الفاشية والاعتداء فلا يغير من الموقف شيئاً [(١)] » .

الاستعمار الأوروبى تجارة منظمة مؤمنة :

فلم يكن الاستعمار الأوروبى إلا نوعا من التجارة المنظمة المؤمّنة والاستثمار المادى المتواصل ، ليس له غاية سامية أخلاقية أو دينية ولا غرض شريف كالإصلاح والتهذيب . وقد صرّح بذلك كبار الدولة ورجالات السياسة فى انجلترا . خطب « سير وليم جانسن هك » أحد وزراء بريطانيا فى سنة ١٩٣٥ م فى المجلس وقال :

« إنا لم نفتح الهنـد لننفع أهل الهند ، أنا أعلم أن إخواننا المبشرين يقولون فى مجالسهم : إنا فتحنا الهند لنزيد فى شرف الهنديين ونرتقى بهم إلى مناصب عالية . إن هذه الدعوى ليست إلا خديعة وزورا . لقد فتحنا الهنـد لنجد سوقا لبضائع بريطانيا ، لست منافقاً حتى أقول إنا نحكم الهند لصالح أهلها ، إنا نحكم الهند لأجل تجارة بريطانيا و بصفة سوق المنسوجات للنكشير خاصة » .

وقدم كبار السياسيين ورجال الشرف والامتياز فى بريطانيا بياناً فى سنة ١٩٣٠ اشترك فيه أمثال سير رنجيالد كريدك وسير مائـكل أودائر « حاكم مقاطعة بنجاب سابقاً » ولورد سدنهم والجنرال سر كلادجيكب والمؤرخ الشهير سر شارلس أومين قالوا فيه :

« إن الهند أكبر زبون فى العالم لمصنوعاتنا ، ولا يمكن لأمة مثل الأمة البريطانية أن تضيع مثل هذا الزبون بغير خسارة فادحة ومن يتحمل هذه الخسارة ، إنما تتحملها مصارفنا وشركات الملاحة فى بلادنا ومصانعنا وموظفونا وطبقاتنا العاملة والمستأجرة » .

الفرق بين حكم الجباية وحكم الهداية :

روى أن عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين قال لعاملة مرةً : « ويحك إن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعِثَ هادياً ولم يُبْعَث جابياً » وهذه الجملة تعرب عن روح

---

(١) Guide to Modern Wickedness. P, 191.

الحكومة الدينية التى تتأسس على منهاج النبوة ، وتسير على آثار الأنبياء وخطتها وسياستها ، فتكون عنايتها واهتمامها بالدين و بإصلاح أخلاق المحكومين و بما يعود عليهم بالنفع والضرر فى الآخرة أكثر من اهتمامها بالجباية والخراج وأنواع المحاصيل والإيراد ، وتنظر فى جميع مسائل السياسة والمالية من الوجهة الدينية وتقدّم المبادىء الدينية والخلقية على المنافع والمصالح المادية ، فتمنع الخمر وتحرم الزنا وأنواع الخلاعة والفجور والعقود المالية الفاسدة النافعة للأفراد المضرة بالمجتمع ، فتحظر الربا والقمار وإن كان ذلك يرجع على الحكومة بالخسارة المالية الفادحة ، وتشرع مشاريع إصلاحية وتراقب الأخلاق وتعنى بتهذيب النفوس ، وإن كان ذلك يكلّفها أموالا طائلة وميزانية ضخمة ، ونتيجة هذا النوع من الحكومات إذا قامت فى بلاد ما بيّنها القرآن وتنبأ بها للمهاجرين الأولين : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

أما الحكومات التى تقوم للجباية لا للهداية وللانتفاع لا للنفع فطبيعى أن تكون عنايتها مصروفة إلى أنواع الخراج والمحاصيل والغلات ، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب الأخلاق والفضائل والنظام المنزلى ، فتبيح أنواعاً كثيرة من الخلاعة والفجور بقيود تنظمها ولا تمنعها ، فتسمح بالبغاء الرسمى ، وقد ترابى بنفسها وتبيح القمار وكثيراً من الجنايات والجرائم الخلقية بتغيير الأسماء وتحديد بعض الأشياء ، تأميناً لمصالحها ، ولا تبيح الخمر فقط بل تبيعها وتتولى تجارتها وتنظيمها وتحاكم وتعاقب من يمنعها ويجاهد ضدها ، وقد تجبر أهل بعض البلاد على اشتراء المخدّرات التى تصدرها ، كما فعل بعض الحكومات الأوربية فى آسيا مع أهل الصين ، فطبيعى كذلك أن تصاب هذه الشعوب المحكومة فى أخلاقها وترزأ فى روحها وقلبها ، بل إن أهل البلاد ينحط مستوى أخلاقهم لمجرد المخالطة بهذه الشعوب الحاكمة ومجاورتها ، ويلحقهم عدوى الأمراض الخلقية الفاشية فى الأقطار الأوربية التى ولدتها الحضارة المادية هنالك ، وذلك ما أقروا به أنفسهم وشكوا منه .

نشرت جريدة « لندن ديلى ميل » بياناً لسير ابرتهنات لين خلاصته :

« إن الأمم التى لم تزل تعيش منذ آلاف من السنين حياة راضية قوية لمّا مُنيت بالبيض الأوربيين وقعت فى مصيبة ، وكلما نظرنا فى حالهم تساءلنا : هل فشلت المدنية فى مهمتها ؟ هل يستطيع أحدٌ أن يدعى أنا أفدنا أمة منيت بتجّارنا البحريين ومبشرينا الدينيين فائدة مادية طفيفة ، و بالعكس من ذلك قد نشر تجارنا البحريون شرب الخمر والأمراض نشراً هائلا ، والآباء المسيحيون قدغيروا خصالهم وعلموهم تعليما أخلاقياً ينتهى بهم لا محالة إلى الهلاك والدمار » .

وقد انعقد مؤتمر للبحث فى مسائل الشرق وتجارة الخمر فى « بائيل هاوس » فى لندن تحت رئاسة أسقف لندن قال فيه ميجر « رشردرج» « Richard Rigg »:

« ليست هنا مسألة أهم وما يدعو إلى الاضطراب أكثر مما سببته تجارة الخمر فى فلسطين . كان فى القدس خمسة وعشرون حانوتاً للخمر مرخصاً به ، وقد زاد عددها إلى أربعمائة ، أما عددها فى فلسطين كلها فسبعون وتسعمائة ٩٧٠ لا أقل من ذلك وثلاثة مصانع للخمر زيادة عليها ، وقد تضاعفت حركة إيراد الخمر وحوادث الجناية والخصامات والمشاغبات وحوادث السيارة بازدياد ، وأكبر خطر على الأخلاق هو ورود المومسات فى البلاد ، وكانت الخمر محظورة قبل الحرب ألبتة ، أما منذ أن دخلت البلاد فى الحكم البريطانى ألغى تجارة الرقيق و بيع الأفيون و بيع الأسلحة للأهالى، ولكن تجارة الخمر لا تزال حرة لا رقابة عليها[1] » و يقول مسيو فوار Faur المبشر الفرنسى عن الزنوج وما جنى عليهم الاستعمار الأوربى :

« و بالآخر فلنقل الحقيقة ، وهى أن الزنا مع مايجره من الأمراض التى كادت تفنى هؤلاء الزنوج إنما فشا فيهم بواسطة الأوربيين ، ولكم من جرم بثه الأوربيون بين هؤلاء السود البؤساء ، ومما لانقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار العصرى

---

(١) مجلة « سبح » الأوردية .

إن هو إلا استغلال المستعمرات وأهلهـا بأى وجه كان ، فمسئولية أوطاننا من هذه الجهة باهظة ، ولا سبيل لإنكارها » :[١]

وقد اقترح بعض المفكرين فى إنجلترا فى إحدى الصحف فى سنة ١٩٢٨م أن تنشر الأمم المستعمرة حركة منع الولادة التى كادت تقطع دابر الأوربيين وتأتى على نسلهم — فى غير الأوربيين ، لئلا تسبق هذه الأمم الغربيين فى وفرة العدد فى المستقبل .

فالحكومات الأوربية تحمل معها مفاسد الحضارة الغربية وشرورها ، وكيف يرجى من هذه الحكومات أن تزدهر الفضيلة والأخلاق ويرقى مستوى أخلاق الشعب فى ظلها ودولتها ، ولم يكن ذلك فى بلادها وأوطانها ، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها ، ولا مما تدين به وتعتقده ، « وكل إناء بالذى فيه ينضح » ، ولم تزل طريق الملوك والفاتحين غير طريق الأنبياء والهداة والمصلحين ، وإن الحقيقة التى ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة لا تختلف فى الأزمنة والأمكنة : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .

(١) حاضر العالم الإسلامى .

الفصل الثالث

أوربا إلى الانتحار

عصر الاكتشاف والاختراع :

إذا عُرِفَت عصور التاريخ بما يميزها عن غيرها ، وأضيفت إليه ، أمكننا أن نسمى هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع ، وعصر اللاسلكى والكهرباء ، وفضلُ الأوربيين وتقدمهم فى هذا الباب وعبقرية رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعهم من القضايا التى لا تقبل المكابرة .

ولكن مهما بالغ المبالغون فى إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة فى أوربا ، ورغم إعجابنا بها والثناء على مكتشفيها ومخترعيها ، ينبغى ألاّ ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات فى نفسها مقصودة بالذات ، بل هى وسائط ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر ، والنفع والضر ، بمقياس هذه الغاية ، وكونها خيراً أو شراً ، ونحكم عليها بالنجاح والخيبة بالقياس إلى مطابقتها للغاية التى وضعت لها ، والنظر فى النتائج التى حصلت منها ، والدور الذى لعبته فى حياة الناس ومجتمعهم وأخلاقهم وسياستهم .

الغاية من الصناعات والمخترعات وموقف الاسلام منها :

أما الغاية ، فعلى ما أرى هى التغلب على العقبات والصعوبات فى سير الحياة التى سببها الجهل والضعف ، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة فى هذا الكون ، وخيراتها وخزائنها المبثوثة فيها ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو فى الأرض ولا فساد .

كان الإنسان يسافر فى الزمن القديم ماشياً ، ثم ألهم أن يسخر لذلك الحيوان فاتخذ العجلات واتخذ الجيـاد العتاق ، ثم لم يزل يتدرَّج فى السرعة والاختراع حتى وصل من المركبة إلى القطار ومنه إلى السيارة ومنها إلى الطيارة ، وكذلك من السفينة الشراعية إلى البواخر ، فلا بأس ، بل ياحبذا إذا كان ذلك كله تابعاً لمقاصد صحيحة يسافر الإنسان بهـا من مكان إلى مكان لغرض صحيح جدّى مثمر ، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس ، ويوفر الوقت والقوة وينتفع بها فى الخـير . وقس على ذلك سائر القوى الطبيعية والمخترعات الحديثـة التى ينتفع بها الإنسان انتفاعاً مشروعا ، ويستخدمها لمقاصد رشيدة نافعة .

إن موقف الإسلام فى ذلك بين واضح ، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله فى الأرض ، قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال : « هو الذى خلق لـكم ما فى الأرض جميعاً » ، وقال : « الله الذى خلق السـموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لـكم وسخر لـكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لـكم الأنهار ، وسخر لـكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لـكم الليـل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » (إبراهيم) ، وقال : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبـحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الإسراء) . ليلاحظ القارىء الإطلاق فى قوله : حملناهم فى البر والبحر ؛ وقوله : ورزقناهم من الطيبات ، وقال : « والأنعام خلقها لـكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون ، ولـكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالـكم إلى بلد لم تـكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمـير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون » (النحل) . قد من الله فى هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس ، واستدل به على رأفته به ، ورحمته له ، وقال : « الذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لـكم من الفلك والأنعام ما تركبون

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » (الزخرف) . وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طيارة : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، فهو أبعد من أن يكون مقرناً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة ، يسخرها له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ولا ينس أنه راجع إلى الله ومحاسَب على ما أوتى من قوة وسعة ، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك . وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يطغى ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

وقال : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوى عزيز » (الحديد) . فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعه أنه يُستخدم لنصر الله ورسله ، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع فى الكون من قوة فى سبيل الجهاد فى سبيل الله ، وفى نشر دينه ، وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته ، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة ، وكسب حلال ، وسفر بر ، ومنافع مباحة .

إنما طائركم معكم :

إن المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها . فإنها خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه ، فهى فى ذات نفسها ليست خيراً ولا شراً ، ولكن الإنسان هو الذى يجعلها باستعماله لها خيراً أو شراً ، وكثيراً ما تكون خيراً فى نفسها ، فيحولها الإنسان شراً بسوء استعماله وخبث سريرته ، وفساد تربيته ، فليس الشأن فى هذه الآلات والمخترعات ، إنما الشأن فيمن يستعملها وفى الغرض الذى يستعملها له . وحقيق أن

يقال — لمن أصبح يتطير فى أوروبا من هذه الآلات ، ومن الطيارات التى تقذف القنابل ، وتدمر المنازل ، وتنسف القرى والمدن ، والغواصات التى تغرق بواخر الركاب المسالمين والتجار الآمنين ، واللاسلكية التى تذيع الكذب والزور ، وتنشر الخلاعة والمجون ويشكو منها ، ويوجه إليها الملام — : « إنما طائركم معكم » فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية ، وليس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها ، وفيم يضعها ، كالكبريت يعطيك ناراً ، ولك أن تحرق بها بيتا على سكانه ، أو تطبخ طعاماً أو تستدفىء بالنار ، والذى يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيم يضعها هو الدين ، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعا حقيقياً ، وكيف يشكر نعمة الله ، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التى خوّله الله إياها معيناً على الظلم والجريمة والإثم والعدوان ، كما قال موسى عليه السلام : « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين » (القصص) . وقال سليمان : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم » .

التخليط بين الوسائط والغايات :

أما الأوربيون فقد حرموا أنفسهم من الدين ، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين ، أو مرشد من علم إلهى يرشدهم إلى الجادة ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتفاع المادى والعلو فى الأرض وبسط السيطرة عليها — كمملكة لا سيد لها ولا وارث — والتغلب على أهلها والاستئثار بخيراتها وخزائنها ، مقصد ولا غاية ، فاستعملوا هذه القوة والعلم فى حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين ، وتنافسوا فى اختراع الآلات التى ينالون بها وطرهم ويعجزون بها غيرهم ، ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليهم الوسائط بالغايات ، فاعتقدوا الوسائط غايات ، وافتتنوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية

فى نفسها لا لغيرها ، وعكفوا عليها وتشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى ، واعتقدوا أن الراحة هى الحضارة ، ثم تقدموا أيضاً وصاروا يعتقدون أن السرعة هى الحضارة . يقول الأستاذ جود : « يقول دزرائيلى Disraeli إن المجتمع فى عصره يعتقد أن الحضارة هى الراحة ، أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة ، فالسرعة هى إله الشباب العصرى ، وإنه يضحى على نُصُبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة [١] » .

عدم تعادل القوة والأخلاق فى أوروبا :

إن الأوربيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم (بظاهر من الحياة الدنيا) والدين منذ قرون ، فلم تزل القوة والعلم فى أوربا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق ، ولم يزل الأولان فى ارتفاع وارتقاء ، والآخران فى انخفاض وانحطاط ، حتى بعدت النسبة بينهما ، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض وهى كفة القوة والعلم ، وخفَّت الثانية (وهى كفة الأخلاق والدين) حتى ارتفعت جداً ، وبينما يتراءى هذا الجيل للناظر فى خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخيره للمادة والقوى الطبعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر إذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله ، فى شرهه وطمعه ، فى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن البهائم والسباع ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة ، إذا هو لا يدرى كيف يعيش ! وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات فى الكماليات وفضول الحياة ، إذا هو لم يعرف المبادىء الأولية والبديهيات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق ، فتراه يصَّعَّد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء ، وهو لم يتقن شئون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه ، وقد خوَّلته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحسن استعمالها ، كطفل صغير أو سفيه أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتَى مفاتيح الخزائن ، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ويعيث فى دماء الناس ونفوسهم .

---

(١) Guide to Modern Wickedness P. 241

قوة الآلهة وعقل الأطفال :

يقول الأستاذ جود الإنجليزى : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش [١] »

ويقول فى موضع آخر :

« إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة ، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهه على كل منعطف ومنعرج ؛ نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ونرسل الصور بالبرق وننصب اللاسلكية فى منازلنا ونستمع فى سيلان إلى دقات (big ben) — الساعة العظمى — تضرب فى لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما ، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية ، والآلات الكاتبة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (x - rays) ، نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغنى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالى ، والطيارات تطير إلى القطب الجنوبى ، ومع ذلك كله لا نقدر فى وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء فى راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفاً (٩٠٠٠٠) سنويا . قال لى فيلسوف هندى فى انتقاده اللاذع لإطرائى لعجائب حضارتنا وكان بعض سوّاق السيارات قد نجح فى قطع ثلثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة على رمال (pendine) ، وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك فى عشرين أو خمسين (لا أذكر) ساعة ، قال الفيلسوف : نعم ! إنكم تقدرون أن تطيروا فى الهواء كالطيور وتسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض [٢]

---

(١) Guide to Modern Wickedness. P. 261

(٢) Guide to Modern wickedness. P. 293

ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم :

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة — مما كانت تعود على النوع الإنسانى بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه — أصبحت وضررها أكبر من نفعها ، وكان كما قال القرآن عن السحر : (ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم) . اسمع شاهداً من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويبوح بالحقيقة وهو « جود » السابق الذكر :

« وقد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان ، ولكن الأمكنة التى نسافر إليها قلما تصلح للسفر ، قد زويت الأرض للرحَّالين وتدانت الأمم ووطئ بعضها عتبة بعض ، ولكن كان نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت ، أما المرافق التى استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت العالم فى الحرب ، اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة ، ولكن كان عاقبتها أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته ، إذ يجتهد أن يُقنعه بفضل نظامه السياسى على نظامه (١) » .

« انظر إلى الطيارة التى تحلِّق فى السماء يُخيّل إليك أن صانعيها كانوا فى علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر ، والذين طاروا عليها أولا لا شك أنهم كانوا فى علو همتهم وعزمهم وجرأتهم أبطالا مغاوير ، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التى استُعمِلت لها الطيارة وتستعمل لها فى المستقبل ؛ إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً ، وهذه إما مقاصد الحمقى أو الشياطين (٢) » .

« وما عسى أن يقول المؤرخ غداً كيف كنا نستعمل معدن الذهب ؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكى ، وسيستعرض الصُّوَر التى تمثل اللباقة

---

(١) Guide to Modern Wickedness. P. 247

(٢) Guide to Modern Wickedness, P. 262

والمهارة التى كان أصحاب المصارف يزنون بها الذّهب ويعدّونه ، وكيف تحدينا قانون الجاذبية فى نقله من عاصمة إلى عاصمة ، وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجرآء فى فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولى الذى كان يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح ، وكانوا لا يُعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض فى جنوب إفريقية ، ويدفنونها فى مصارف لندن ونيويورك وباريس[1] » .

أوربا فى الانتحار :

والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة فى الخير والصلاح ، وضيعوا الأصول والمبادىء الصحيحة ، وزاغت قلوبهم وانحرفت واعتلت أذواقهم لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضررا ، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل فى جسم المعود والموبوء مرضاً وفساداً ، بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة فى الإهلاك واستعانة على الانتحار ، وقد أحسن المستر إيدن Eden وزير خارجية بريطانيا وصف ذلك فى بعض خُطبه سنة ١٩٣٨ م :

« إن أهل الأرض كادوا يرجعون فى أُخريات هذا القرن إلى عهد الهجمية والوحشية ، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها . وإنى أتعجب فى بعض الأحيان وأقول : كيف لوزار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعُدّ العُدَّة لإهلاك بعضنا ، ونتبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضا كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية » .

---

(١) Guide to Modern Wickedness. P .262

القنبلة الذرية وفظائعها :

لعل المستر إيدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدر بخلده أن العالم المتمدن وعلى رأسه أميركا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد ستتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبذ جميع الآلات والمخترعات فى التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله فى الهول والفظاعة . قد كانت هذه الآلة هى القنبلة الذرية ، التى جرّبتها أمريكا مرة فى صحراء نيومكسيكو ، وثانية على رءوس البشر فى مدينة هيروشيما ، وبعدها فى نجازاكى المدينتين اليابانيتين . وإليك تفصيل الحادث حتى تعلم مقدار قوة هذه الآلات المستحدثة ، وخطرها على مستقبل النوع الإنسانى وعلى سير الحياة :

« فى فجر اليوم السادس عشر من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ جُرّبت القنبلة الذرية الأولى فى صحراء نيومكسيكو ، كان الجو مكفهراً والمطر ينهمر ، وكان البرق يشق بسيفه صدر السحاب الأدكن الكثيف ، فيهز نفوس العلماء المقيمين فى أبراج للمراقبة تتدرج بُعدا عن القنبلة ، وأقربها إليه لا يقل عن عشرة آلاف قدم ؛ ففى أعلى برج القنبلة قنبلة كلف إخراجها ألفى مليون من الريالات وجهود ألوف من العلماء والباحثين والعمال ، وليس بين العلماء الرابضين فى أبراج المراقبة رجل واحد يعرف ما سيكون من أمرها ساعة تدار الأزرار ، وتنطلق الطاقة الهائلة المطوية بين جوانحها ، فقد جاءوا إلى هذه الصحراء ليفجروا أول قنبلة ذرية صنعها الإنسان بيده ، فإذا تم التفجر وفقاً للحساب الذى حسبوه — انتقل البشر على هديره إلى عصر جديد؛ عصر الطاقة الذرية خيراً كان ذلك أو شرا ، إنها لساعة رائعة من ساعات التاريخ .

فى يوم السبت الموافق للرابع عشر من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ رفعت القنبلة إلى قمة البرج ، ومضى العلماء والخبراء خلال ذلك اليوم واليوم الذى يليه فى إنجاز الأعمال التى تعد القنبلة لساعتها الفاصلة ، فوصلوا ببرجها جميع الأجهزة والأدوات اللازمة لإعطاء الإشارة الأخيرة لتفجيرها ، ولقياس قوة الضغط والحرارة والإشعاع وما أشبه ذلك ، وقد عين ميعاد تفجيرها فى فجر اليوم السادس عشر من يوليه ، وعُهِدَ إلى

الدكتور أو بنهايمر — الذى أشرف على صنعها — أن يتولى الفصل الأخير فى هذه الرواية الدهرية الرائعة ، وأقام فى برج للمراقبة — يبعد ١٧ ألف ذراع عن برج القنبلة — كبار العلماء ورجال الإدارة الذين تعهدوا المشروع منذ مراحله الأولى .

وفى الساعة الثالثة صباحا انتقلت الجماعة إلى برج للمراقبة يبعد ١٠ آلاف ذراع عن برج القنبلة ، واتصل الدكتور أو بنهايمر والجنرال جروفز برجال الأرصاد الجوية فوجدوا أن أحوال الجو غير مواتية ، ولكنهم قرروا أن يمضوا فى التجربة دون تغيير فيها ، فقد كان الرأى أن يستعينوا بطائرات محلقة لمراقبة التفجر من أطباق الجو ، فحال انهمار المطر واكفهرار الجو دون ذلك ، فعزموا على مضض أن يمضوا فى التجربة بدون الطائرات ، وجعل زمن التفجير فى الساعة الخامسة والنصف صباحا .

ها هى ذى الدقيقة العاشرة بعد الخامسة وكل من العلماء ورجال الحكم جالس أمام مذياع ينصت ، وإذا صوت الدكتور اليسون من عظماء جامعة شيكاغو يقول : لم يبق سوى عشرين دقيقة — خمس عشرة دقيقة — عشر دقائق — خمس دقائق ، وكانت الفواصل بين هذه الإذاعات فى نظر هؤلاء الناس المتلهفين كأنها دهور طويلة ، وإذا صوت اليسون يقول : دقيقة واحدة — ٤٥ ثانية — ٤٤ ثانية — ٤٣ ثانية . وفى تلك اللحظة تولى الجهاز الآلى الذى يفجر القنبلة النيابة عن العلماء ، فقد خرج الآن أمر تفجيرها من أيديهم ولا حيلة فى منعه لو هم أرادوا .

ثم جاء صوت المذيع على الراديو يقول : (الآن) :

وإذا بريق يبهر البصر وكان من الرجال فريق قد استدبر برج القنبلة ورمى ببصره إلى سلسلة من الجبال عند أفق الصحراء تبعد عنهم ثلاثة أميال ، فوجد نور الانفجار يضىء تلك السلسلة ، وتبدو معالمها واضحة لأعينهم على صفحة الأفق ، وقد مرت هنيهة لم يسمعوا فيها صوتاً ، لأن الضوء أسرع كثيراً من الصوت ، ثم جاءهم هدير مدمدم متصل وموجة طاغية من الريح ، وقد صدمت هذه الموجة رجلين واقفين خارج برج المراقبة فطرحتهما أرضاً .

ونظروا إلى المكان الذى قام فيه برج القنبلة فإذا سحابة ضخمة فائرة مختلف ألوانها ، وإذا هى ترتفع إلى ٤٠ ألف قدم ، وما هى إلا ثوان حتى تحولت غبراء دكناء على ذلك الارتفاع العظيم ، فلما تبددت السحابة نظروا فلم يجدوا برجاً . فهذا البرج المصنوع من الصلب الذى رُفعت القنبلة على قمته قد تبخر ووجدوا تحته هوة فاغرة .

وقد روى أحد سكان مدينة « سلفرستى » التى تبعد مئة ميل عن مكان التجربة أن الهدير بداله كأنه دمدمة رعد قوى ، فارتجت المنازل وتكسر زجاج النوافذ فى كثير منها ، وقالت سيدة إنها رأت وهج الانفجار وسمعت هديراً ساعة قطعت بسيارتها الحد الفاصل بين ولاية ميكسيكو وولاية إريزونا فى مكان يبعد ١٥٠ ميلا عن مكان التجربة ، قالت : كنا قد برحنا بلدة سافورد لساعتنا فإذا الجبال يغمرها ضياء كضياء النهار نحو ثلاثة ثوان ، ثم ران الظلام ثانية فكأنما الشمس قد طلعت علينا هنيهة ثم اختفت فجأة وراء الأفق — كان ذلك يوم القنبلة الذرية الأولى .

ولم تكد تنقضى ثلاثة أسابيع على يوم القنبلة الذرية الأولى فى صحراء نيوميكسيكو حتى انطلقت قاذفة أمريكية من طراز القلاع الطائرة الضخمة فحلقت فوق قاعدتها فى جزائر ماريانا ، ثم استوت فى الجو واتجهت شمالا إلى امبراطورية الشمس الطالعة ، وكانت وجهتها مدينة هيروشيما أول مدينة فى التاريخ كانت هدفا لقنبلة ذرية .

وهيروشيما مدينة قديمة يرتزق أهلها من الصناعة الخفيفة والتجارة ، ولكنها صارت فى الحرب الماضية قاعدة كبيرة لتخزين العتاد وتموين الجيوش ، وقد قيل إن عدد سكانها ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، ولكن طائفة غير قليلة منهم أجليت عنها قبل القنبلة الذرية ، فيغلب أن عدد سكانها فى صباح السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥ كان أدنى إلى ربع مليون منه إلى ثلث مليون نفس .

فى الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم ولوت صفارة الإنذار فى أحياء المدينة ، ورؤى أن فى الفضاء المجاور ثلاثة طائرات فلم يقلق ذلك أحداً من سكانها ، فقد ألفوا فى العهد الأخير رؤية أسراب من القلاع الطائرة الضخمة تعبر جوها منطلقة إلى أهدافها فى مناطق أخرى من اليابان ، ولكن هيروشيما لم تمس وقد يجىء دورها؛ فلذلك عمدت الحكومة إلى إجلاء بعض السكان ، وإعداد المطافىء لمغالبة النار حين تلقى عليها القاذفات المغيرة عشرات الألوف من قنابلها المحرقة ، ونظر السكان إلى الطائرات الثلاث أو تسامعوا بها فهجس فى نفوسهم أن يوم الغارة الكبيرة على هيروشيما ليس هذا اليوم ، وفى الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين انطلقت صفارات الإنذار معلنة زوال الخطر فانصرف الناس إلى أعمالهم ، ولكن جماعة منهم تألبت قرب دار المحافظة ، ورفعت أبصارها إلى الفضاء تتأمل فى ثلاث مظلات منها ، وفى جو الصباح الصافى كعين الديك ، فانفجرت القنبلة الذرية على مئات من الأمتار فوق رؤسهم .

وقد روى الناس الذين كانوا على أميال من قلب المدينة فى جميع الجهات، فى الحقول والجبال وفى الزوارق على ماء الخليج أنهم رأوا ضياء كان باهراً حتى فى رائعة النهار ، وشعروا بالحرارة تلفحهم ، وكانت فلاّحة ذاهبة إلى مزرعتها فإذا هى ترى ضوءاً ينعكس على صفحة الجبل ، ثم خطّاً من الضياء وكأنه شرارة برق ، وكانت امرأة تغسل الثياب فقالت إنها لاحظت أن خدها القريب من الجدار قد لفحته حرارة لم تألفها ، فنظرت ناحية المدينة فرأت شيئاً كالشمس زاهى اللون ، وكان رجل يزيت أجزاء آلته فى مصنع فإذا الأنوار تنطفىء ، فظن خللا فى السلك الكهربائى ، فلما بدأ السقف ينهار ذهل عن نفسه ، ثم لاحظ أن الدم يسيل من يديه ورجليه فلم يفهم كيف كان ذلك .

وهذه طائفة يسيرة من أقوال الذين رأوا القنبلة الذرية فى هيروشيما ، وظلوا على قيد

الحياة ، ولـكن سبعين ألفاً إلى ثمانين من أهلها هلـكوا فى ذلك اليوم[(١)] ساعة تفجرت قنبلة واحدة بقوة ٢٠ ألف طن مادة ت ن ت المتفجرة » .

« . . . . فساعة تفجر قنبلة ذرية فى قاب مدينة تحس كأنك ولدت لساعتك قطعة صغيرة من الشمس ، فثمة أولا كرة النَّار قد يبلغ قطرها ثلث ميل ، وحرارتها فى قلبها قد تـكون نحو مليونى درجة مئوية أو تزيد ، وهذه الحرارة الهائلة التى تتولد على حين فجأة تحدث موجة من الضغط الفظيع العنيف ، وشاهد ذلك القنبلة الخامسة التى فجرت تحت سطح الماء فى بيكينى ، فدفعت فى الفضاء عموداً ضخما من الماء قطره ألفا قدم وزنته نحو خمسة ملايين طن ، فارتفع هذا العمود ميلا فى دقيقتين ونصف دقيقة ، ثم انطلق من هذا العمود قدر عظيم من الماء نصف ميل فى الفضاء على شكل مظلة ، ثم غلبته الجاذبية على أمره فبدأ يتهاوى ، وتحبو فى أثر موجة الضغط رياح قد تبلغ سرعتها ٥٠٠ ميل فى الساعة إلى ألف ميل فتدمر المبانى وتصدعها ، ويصحب الحرارة والضغط موجة من الإشعاع الذى يخترق الأجسام ، ولا تغنى فى توقيه جدران من المبانى سمكها قدم أو أقل ، وهذا الإشعاع يؤثر فى الأنسجة التى تولد كريات الدم فى نخاع العظام ، فيعجز الدم عن القيام بوظيفته وهو لا يتجمد ولا يتخثر ، ولـكنه يسيل من أنسجة لم تنشق ولم تجرح إلى فجوات فى باطن الجسم ، أو ينزل من الجلد كما حدث لذلك العامل اليابانى الذى ذكرته ، وتزول كريات الدم البيض التى تـكافح المرض فى البدن ولا يلبث المصـاب أسبوعين حتى يهلك .

ذلك كان يوم هيروشيما ، وعلى غراره كان يوم نجازاكى .

وأهل العلم والحرب يقولون إنه إذا نشبت حرب ذرية لا قدر الله فلن تقتصر على قنبلة ومدينة ، بل قد تشمل مدناً كثيرة ومئات أو ألوفا من القبائل ، فهذا سلاح

---

(١) أذاع رئيس بلدية هيروشيما فى ٢٠ أغسطس ١٩٤٩ م أن الذين هلكوا فى اليوم السادس من أغسطس ١٩٤٥ م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتى ألف وعشرة آلاف ومائتى ألف وأربعين ألفا (ب — ت) .

ـ على ما جاء فى التقرير الرسمى عن الطاقة الذرية ـ له قدرة على التدمير تفوق أعظم ما يبلغه الخيـال ، وهو سلاح شديد الملاءمة للهجوم المفاجىء بلا إنذار ، فتستطيع الدولة التى تحدثها النفس بالاعتداء أن تدمر بين عشية وضحاها أعظم المدن فى دولة أخرى تربطها بها فى الظاهر أواصر الصداقة والود[١] » .

يقول المستر استورت(Stuart Gilder) ، فى مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة (Statesman) فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر ١٩٤٥ .

يقول البروفسور (Pleseh) : « لا يؤمَن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التى انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغى أن يفحص عنهم فحصاً طبياً ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوماً ويقرأوا فى الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت فى الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان » .

ويقول البروفسور « م . ى . أولى فنيت » معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية :

« من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية ، إن المبادىء التى قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لـكل دولة ، إن بريطانيا وأمريكا استفادتا بتجاريب السابقين وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، ولـكنها لا تدوم سراً حربياً إلا لأجل معدود ، لأن كل بلاد صناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية فى مدة خمس سنوات ، وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها فى سنتين » .

ويقول البروفسور المذكور : « وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار ، وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط ، وإن ست قنابل

---

(١) من رسالة « النار الخالدة » للأستاذ فؤاد صروف ٤٨ — ٥٩ .

فقط من هذا القبيل تكفى فى تدمير انجلترا على بكرة أبيها ، و إن العلماء الروسيين ينجحون فى إعداد القنابل فى مدة قصيرة جداً » .

لقد أصبحت القنبلة الذرية بعد انفجارها فى هيروشيما حديث الصحف والمجلات والكتب والرسائل والنوادى، وأصبحت أهم حديث وأمتعه رغم هوله وأكبر موضوع علمى وعملى ، وهناك دقائق علمية عن صناعتها وتركيبها وتفاصيل هائلة عن انفجارها وما أحدث من فظائع وخسائر ، وفيما نقلنا بلاغ من هولها ومدى تأثيرها وعن مصير الإنسانية البائسة فى عهد اكتشافها .

والذى خبث لا يخرج الا نكدا :

وقد تضعضع أساس المدنية الأوربية كما ذكرنا بتفصيل ، ولم يزل بناؤه متزعزعا ، ولم تزده الأيام ولم يزده الارتفاع إلا زيغاً واختلالا ، وفسدت بذرتها فلم تصلح شجرتها ولم تطب ثمرتها ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا .

وقد شرح ذلك فى إيجاز الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى الهندى فى أحد فصول كتابه « تنقيحات » الأوردية قال :

« ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الإلهية ، لقد كان فيها قادة الدين ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، ولم يكن عندهم إلا شبح دينى لو حاول أن يسير بالنوع الإنسانى على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع ، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسدا فى سبيل ارتقاء العلم والحكمة ، وهكذا كان ، وكان عاقبة ذلك أن الذين كانوا يريدون الرقى نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقاً لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التى هى فى حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها فى طرق الفكر والنظر

والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولـكن ضلت خطوتهم الأولى فى كل جهة وفى كل مجال ، وانصرفت فتوحهم فى ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم فى سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة ، إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا فى الكون على أنه ليس له إله ، نظروا فى الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شىء ، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم ، وانصرفوا من عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلابة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك ؛ هذا هو الذى مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الإنسان ، وصاغ الأخلاق فى قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة ، وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتك ببنى النوع ، ودس فى عروق الاجتماع وشرايينه سموم عبادة النفس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعم ، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون والنسل وعبادة إله القوة ، فجعلها لعنة كبرى للإنسانية . والحاصل أن البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوربا فى نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازا ساما لا يرى ولكنه يسمم دم النوع البشرى .

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها وأصبحوا يتذمرون منها ؛ لأنها خلقت فى كل ناحية من نواحى حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا ظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعا من فروعها إلا وتطلع

فروع كثيرة ذات شوك ؛ فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوكة بالشوكة . إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الاشتراكية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية ، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة تذكير النساء (Feminism) وحركة منع الولادة ، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية فاشرأبت حركة العصيان والجناية ، فلا ينتهى شر إلا إلى شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شروراً ومصائب ، حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحاً ، يشكو من كل جزء أوجاعا وآلاما ، وأعيا الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع ؛ الأمم الغربية تتململ ألماً ، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة . إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب فى فروع هذه الشجرة ، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ، ويضيعون أوقاتهم وجهودهم فى قطعها ، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد فى أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد ، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ، ولكنهم لما نشأوا قرونا فى ظل هذه الشجرة — وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم — كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأوراقا صالحة سليمة ، وكلا الفريقين فى النتيجة سواء ؛ إنهم يتطلبون شيئاً يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ، ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه [١] » .

---

(١) تنقيحات ، مقالة أمم العصر المريضة ص ٢٤ — ٢٥ — ٢٦ .

الفصل الرابع

رزايا الإنسانية المعنوية فى عهد الاستعمار الأوربى

ليس من قصدنا الآن أن نبحث عن رزايا الأمم الشرقية الأسيوية فى السياسة والاقتصاد والتجارة والصناعة ، وخسارتها فى ممتلكاتها وانكسارها أمة بعد أمة وقطراً بعد قطر أمام قوة الغرب المادية ودهائه السياسى ، فلذلك حديث يطول ولا يسعه هذا المؤلف الصغير ، وقد طرق هذا الموضوع كثير من المؤلفين والمؤرخين فى الشرق والغرب ، وألّفوا فيه مؤلفات بين صغير وكبير ومتوسط وأشبعوا فيه الكلام .

ولكن الذى يهمنا — ونحن نتكلم فى هذا الكتاب عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين واستيلاء الأوربيين بالتبع — رزيئة العالم الإنسانى وخطب المجتمع البشرى فى الروح والأخلاق والنفس ، ومعان أسمى من المادة وما يتصل بالجسم والأرض فى عهد النفوذ الأوربى العام ، وسيل حضارته الجارف ، فتلك رزية لا تقبل العزاء ، وكسر لا ينجبر ، والذين أدركوه قليل ، والذين تحدثوا به أقل من أولئك القليل .

ولما كان نظام الحياة الإسلامى هو المنافس للنظام الجاهلى كان طبعاً رزء المسلمين فى عهد انتصار الحكم الجاهلى أكبر ، وقسطهم فى هذه المصيبة العالمية أوفر ، لأن الإسلام والجاهلية ككفتى ميزان ، كلما رجحت كفة طاشت الأخرى .

والآن نتحدث عن هذه الرزايا المعنوية رزيئة رزيئة .

بطلان الحاسة الدينية :

ما هي غاية هـذا العالم التى ينتهى إليها ، ومصيره الذى يصير إليه ؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وما هو وضعها إذا كانت ؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات فى الحياة الدنيا ، ومن أى منبع تستقى هذه المعلومات ؟ وما هى الطرق والأسس التى إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية ، ومامصدر هذه الطرق ؟ وما هى الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ، ومن أين تستفاد هذه الطريق ؟

تلك أسئلة ورثهـا الشرق أباً عن جد ، وشغلت خاطره ، وأزعجت فـكره طيلة قرون ، ولم يقدر أن يذهل عنها و يتناساها حتى فى لهوه وزهوه ، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه ؛ ونداء ضميره ، ولم يستطع أن يتصام عنه و يطوى دونه كشحاً ، بل أصغى إليه فى رغبة ونصيحة و إخلاص ، وأحلّ هذه الأسئلة من نفسه وحياته المحل الأول ، وما زال منذ آلاف من السنين فى أخذ ورد ونقض و إبرام فى هذا الموضوع ، وليس ما نسميه ماوراء الطبيعة والفلسفة الإلهية ، والإشراق والرياضة النفسية ، والعلم والحـكمة ، إلا محاولات ومغامرات فى هذا الطريق الطويل المظلم ، وارتياداً إثر ارتياد فى مناطق مجهولة ، ينبىء عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ورغبته الملحة فيه .

هذه طبيعة الشرقى وطبيعة أكثر أفراد البشر فى الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين ؛ وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيرهم قلنا : لم يزل فى الناس عدا حواسهم الظاهرة الخمس حاسة سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية ، وكما أن الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصة بها فللعين مبصرات وللأذن مسموعات الخ . كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات وتأثيرات هى من خواص هذه الحاسة التى لم تزل لأهل الشرق ضربة لازب ، وكما أن من فقد حاسة

من الحواس الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها ، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة ، ولا تحل حاسة مهما كانت قوية وصحيحة محل الحاسة الأخرى ؛ كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارىء مؤثر أو حُرمها لنقص فى الفطرة بطلت نتائجها الخاصة بها ، وانعدمت فى حقه ، بحيث لا يستطيع أن يتصورها أو يصدقها، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية ، وقد يعاند ويكابر فى إنكارها ، وشأن الأصم الذى ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده ، ليس بها داع ولا مجيب ؛ كذلك من حُرم الحاسة الدينية جحد الغيب ، وكابر فيما هو وراء الطبيعة وعاند فى المعانى الدينية ، وقسا على الرقائق والقوارع التى تهز النفوس ، وترقق القلوب وتذرف العيون :

* ما لجرح بميت إيلام *

إن أشد العقبات التى واجهها الأنبياء والدعاة الدينيون ، واصطدمت بها خُطَبهم ومواعظهم ودعوتهم ، هم أولئك الذين حرموا الحاسة الدينية أو فقدوها بتاتاً ، والذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم فى مسئلة الدين ، والذين آلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون فى أمر الدين وأمور الآخرة ، ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلا ، والذين لَمَّا سمعوا كلام النبى الذى تجيش له الصدور وتلين له الصخور ، ما زادوا أن قالوا فى صمم وإعراض : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » ولما انتهى النبى من كلامه السائغ المعقول الذى يفهمه الأطفال ، والذى كان بلغتهم الفصيحة قالوا : « ما نفقه كثيراً مما تقول ، و إنا لنراك فينا ضعيفاً » ، « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون »

لا شك أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين فى فجر النهضة الأوربية الجديدة ، واستمروا يبحثون فيها و يؤلفون ويتناقشون ، ولكن كلما قطعت المدنية الأوربية شوطاً تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطاً ؛ ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هى فى مظهرها المادى خَفَتَ فى ضجّتها هذا الصوت الذى كان

ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير الإنسانى الحى ، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس فى قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فى المدارس والمجامع العلمية والمكاتب العامّة ، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون وتظهر لهم فى هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى ؛ ولكن الذى لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار وامحت علامة الاستفهام الواضحة النيّرة التى كان يراها كل إنسان عاقل فيقف أمامها كما تقف القُطُر أمام الإشارات ، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك فى صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك فى صدورهم ، ولم يكن ذلك عن إيمان وانشراح صدر وطمأنينة قلب واقتناع بحل صحيح وارتياح إلى نتيجة حاسمة . كلا ! لم يكن ذلك إلا لأن هذه الأسئلة قد فقدت أهميتها وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم فى أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين منها ؛ ولأن رجل العصر قد لزم الحياد التام فى هذه المسائل وصرف النظر عنها ، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياة ثانية وكانت الجنة والنار والثواب والعقاب والنجاة والهلاك أولم تكن ، فلا يهمه شىء من ذلك لا سلباً ولا إيجابا ، لأن شيئاً من ذلك لا يمس مسائله اليومية أو فى آخر الشهر ، ولا يتصل بشخصه وعياله فى الساعة الحاضرة ، وهو رجل لا يعتقد فى النسيئة ولا يترك عاجلًا بآجل ، ولا يتكلف مالا يعنيه فيترك هذه المباحث « الفارغة » يبحث فيها معلم الفلسفة فى الجامعة ويفضى فيها برأيه المؤلف فى هذا الموضوع . أما هو فهو رجل جد وعمل ، لا يعرف إلا حياة المصانع والإدارات وسير الماكينات ، ولا يهتم إلا بتسلية النفس وترويحها فى آخر النهار والنوم الهادىء فى آخر الليل والأجرة فى آخر الأسبوع أو الرواتب فى أواخر الشهور وحساب الأرباح فى آخر السنة وإعادة الصحة والشباب فى آخر العمر . وأما ما بعد الحياة فهو عنده مجهول ووهم من الأوهام : « بل ادّارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون » .

إن هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عدداً وأهمية فى كل أمة وبلاد بتأثير الحضارة الغربية ، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتغالهم بالحياة الدنيا والعكوف

عليها فراغا لدعوة دينية ، وإن الذى يدعوهم إلى الدين والحياة الأخروية ليتحير معهم كما تحير السندباد البحرى — كما تروى لنا حكاية ألف ليلة — مع بيضة العنقاء ، ظنها السندباد البحرى بناء من رخام فدار حولها عدة مرات ليبحث عن باب يدخل منه فلم يجد ، كذلك الداعى الدينى يدور حول رءوسهم فلا يجد منفذا يدخل منه إلى عقولهم ، ويدخل به دعوته الدينية إلى نفوسهم ، فقد أقفلت الحياة المادية ومسائلها جميع أبوابها وسدت جميع نوافذ فكرهم .

وكما أن رجلا لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبى ، يسمع الألحان الجميلة والأبيات الرقيقة فلا يعدها إلا أصواتا لا فن فيها ، كذلك الذى حرم الحاسة الدينية لا تؤثر فيه دعوة الأنبياء وخطب الوعاظ ، وحكمة العلماء وأمثال الصحف السماوية ، وتضيع فيه بلاغة البلغاء وإخلاص المخلصين ، ويصبح كل ذلك صيحة فى واد ونفخة فى رماد :

لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى

والذى منى بهذا الضرب من الناس يفهم السر فى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » ، « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل » وتظهر له حقيقة قوله : « مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى . فهم لا يعقلون » ولم يلق فى شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون من صعوبة الذين لم يشاهدوا هذا النوع .

داء هذا العصر الذى لا ينجع فيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو الاستغناء التام عن الدين ، ولم يلق رجال الدعوة الدينية من العنت والشدة فى أحط أدوار الفسق والفجور وفى أحلك عهود المعصية والغفلة ، ما يلاقونه فى دعوة هؤلاء الذين لزموا الإعراض التام فى هذه المسائل (الكلامية) فلا تعنيهم سلباً ولا إيجاباً « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » .

وقد فطن لهذا الفرق الجوهرى بين النفسية القديمة والجديدة أحد كبار معلمى

الفلسفة وعلم النفس فى إحدى جامعات أوربا الكبرى وشرحه فى عبارة وجيزة قال س — م جود :

« ثارت فى قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين ، لم يطمئن بعض أصحابها ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع ، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزعجه هذه الأسئلة رأساً ولا تحيك فى صدره ولا تنشأ فى هذا العصر أصلا » .

زوال العاطفة الدينية :

لما طغى بحر المادية فى العالم الإسلامى فى العهد الأخير وفاض فيضانه كون رجال الدين جزراً صغيرة فى بحر المادية المحيط يلجأ إليها الفارون إلى الله والمتبرمون من الحياة المادية والغفلة ، كان فيها رجال هم كمنارات النور فى بحر الظلمات ، يربون الناس التربية الدينية والخلقية ، ويزكون أنفسهم ويصقلون قلوبهم .

وكنت ترى فى العالم الإسلامى حركة مستمرة إلى هذه الجزر ؛ فترى قوافل لرواد الروحانية ومنتجعى التربية الدينية غادية رائحة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى شمال العالم الإسلامى إلى أقصى جنوبه ، متخطية الثغور السياسية مجتازة العقبات الجغرافية ، فترى هذه الجزر مستعمرات دينية ، قد امّحت فيها الفروق الجنسية والوطنية ، وترى متحفاً إنسانياً قد اجتمع فيه الشرقى مع الغربى والبخارى مع المراكشى والأناضولى مع الأندونوسى ، قد فروا بدينهم من الفتن ورموا بأنفسهم على عتبة ربهم ، يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ويتلقون التربية الدينية ثم ينبثون فى أنحاء العالم دعاة مصلحين ومعلمين مرشدين ، يلتقطون نصيب الله من بين نصيب الشيطان ، ويحيون أرضاً مواتاً من القلوب ويبذرون فيها بذور الدين .

وكذلك لم تزل فى جنب أقوى الدول وأوسعها دول روحية يفوق سلطانها الروحى سلطان الدولة المادى ، فيها رجال تأتيهم الدنيا راغمة ويأتيهم الملوك والأمراء صاغرين ، ولهم نظام كنظام الدول ينصبون ويقرون وينقلون ويستخفون ولهم « قناصل وسفراء » فى كل دولة مادية وكأن خارطة العالم الإسلامى بين أيديهم ،

فإذا خلا ثغر من ثغور الإسلام نصبوا فيه مرابطاً دينياً يحفظه من عادية الغفلة والمعصية ، ويحرسه من غاشية الجهل والطغيان [(١)] .

وكانت هذه الدول الروحية مستقلة فى إدارتها ونظامها الداخلى ، لا يتداخل فيها الملوك والأمراء ولا تؤثر فيها التقلبات السياسية والحوادث المحلية ؛ ولنضرب لذلك مثلا بالمستعمرة الروحية المعروفة بغياث فور التى أنشأها الشيخ نظام الدين البداونى الهندى « م ٧٢٥ هـ » فى نفس عاصمة الهند وقد عاصر الشيخ ثمانية من الملوك الجبابرة « من غياث الدين بلبن ٦٦٤ — ٦٨٦ إلى غياث الدين تغلق ٧٢٠ — ٧٢٥ » وحافظت على استقلالها التام من غير أن تمسها يد الملوك ، وكنت ترى فيها رجالا من سنجر فى إيران إلى رجال من أوده فى شرق الهند .

وقد كان لهذه المراكز ولأصحابها الفقراء من المهابة والحشمة والاحترام الفائق ما قد يحسدهم عليه أكبر ملوك العالم ، وقد يكون هذا سبب الوحشة بينهم ، وما ذاك إلا لإقبال الناس على رجال الدين واحتفائهم بهم والخضوع للسلطان الروحى ، فكان السيد آدم البنورى الهندى (م ١٠٥٣ هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشى فى ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء ، ولما دخل السيد فى لاهور عام ١٠٥٣ كان فى معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم ، حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفة ، فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له : قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز . فعرف إيعاز الملك وسافر إلى الحرمين حيث مات [(٢)]

وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندى

---

(١) حدث الشيخ صالح السيد على الهجويرى دفين لاهور أن شيخه أمره بالرحلة إلى لاهور والإقامة فيها ، فاعتذر بأن هناك زميله الشيخ حسين الزنجانى فلا لزوم لذهابه ، فقال : لابد أن تذهب وتقيم بها . قال : فشددت رحلى وامتثلت أمر الشيخ ووصلت إلى لاهور فى الليل وقد غلقت أبوابها فبت ليلتى خارج السور ، ولما أصبحت وفتح باب السور إذا بالناس يحملون جنازة الشيخ حسين ، فعرفت سر أمر الشيخ ودخلت البلد ، وخلفته فى عمله دعاء الخلق إلى الله (كشف المحجوب للهجويرى)

(٢) التذكرة الآدمية (الفارسية) .

قد بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال ، واستخلف فى دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال[١] .

وهذا ابنه الشيخ سيف الدين السرهندى (م ١٠٩٦) كان يأكل على مائدته أربعمائة وألف ، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها[٢] .

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندى (م ١١٥١) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيلان والمناديل حتى لا يطأ الأرض ، وإذا خرج لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج فى ركابه الأغنياء والأمراء ، فكان موكباً مثل مواكب الملوك[٣] .

وهذه أمثلة قليلة لا نقصد منها إلا الاستدلال على ما كان للدين من مكانة وشرف فى عيون الناس ، وعلى ما كان من احتفاء برجاله ومن يمثلونه ، وخضوعهم لسلطان الدين فوق سلطان القوة ، وتهافتهم على موارد الدين ومشارعه ؛ وهذه أمثلة التقطناها على عجل من تاريخ الهند الإسلامى ولمحات عابرة فيه ؛ ولو ذهبنا نستقصى أمثلته وشواهده من تاريخ الإسلام العام ومن تراجم الرجال الدينيين وسيرهم فى بلاد الشام ومصر والمغرب والأقصى والعراق لكان مجلداً كبيراً — ونكتفى هنا بذكر الشيخ خالد الكردى (م ١٢٤٢ هـ) الذى ازدحم الناس عليه فى بغداد يتوبون على يديه ويستفيدون منه ، وقد أخبر شيخه فى رساله كتبها إليه أن مائة من العلماء الفحول قد تخرجوا عليه ، وأن خمسمائة من كبار العلماء قد دخلوا فى بيعته ، وأما العوام والخواص فلا يأتى عليهم حصر[٤] .

واستمر هذا الإقبال على الدين والهجرة فى طلب العلم النافع والعمل الصالح ، وتجشم الأسفار والأخطار لتزكية النفس وتهذيب الخلق والتوصل إلى معالم الرشد

---

(١) نزهة الخواطر ، المجلد الخامس ، للشيخ عبد الحى الحسنى .
(٢) ذيل الرشحات (الفارسية) .
(٣) در المعارف (الفارسية) ونزهة الخواطر (العربية) ،
(٤) در المعارف .

والاستعداد للآخرة إلى أول عهد الاستعمار الأوربى؛ فنرى فى كل قطر إسلامى مراكز دينية وملاجىء روحية يأوى إليها أهل الطلب من سائر الآفاق، وتخطبهم الدنيا والمناصب العالية فى الحكومات فيأبون إلا فراراً، ويلجأون إلى هذا المحيط الهادىء الروحى، ويكبون على إصلاح باطنهم وسلّ حظّ الشيطان منه.

ونتعدى فى الحضارة إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى وقد احتل الإنجليز الهند، ولما تؤثر حضارتهم وفلسفة حياتهم فى مجتمع البلاد، فنرى بقايا من الحياة الدينية الأولى، ويحدثنا مؤرخ(١)، عن زاوية الشيخ غلام على الدهلوى (م ١٢٤٠) فيقول:

« رأيت بعينى فى هذه الزاوية رجالا من الروم والشام و بغداد ومصر والحبشة قد بايعوا الشيخ، وعدوا المثول بين يديه حسنة الدهر وسعادة العمر. أما الوافدون من البلاد القريبة كالهند وأفغانستان فكانوا كالجراد، ولا يقل عدد المقيمين فى هذه الزاوية عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم(٢) ».

ويجيل الشيخ رءوف أحمد المجددى نظره فى رجال هذه الزاوية اليوم الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٢٣١ هـ فيجد رجالا من سمرقند وبخارا وتاشقند وحصار وقندهار وكابل و بشاور وكشمير والملتان ولاهور وسرهند وامروهه وسنبهل ورامبور وبريلى ولكهنؤ وجائس وبهرائج وكوركهبور وعظيم آباد ودهاكه وحيدر آباد وبونه وغيرها(٣).

وليعرف القارىء أن هذا كله فى زمان لم تحدث فيه طرق النقل الحديثة فكان كله مشياً على الأقدام وسفراً فى القوافل.

وتتجلى المناظر الأخيرة لهذا العهد الراحل فى تاريخ مصلح الهند الكبير والمجاهد

---

(١) هو السير السيد أحمد خان صاحب الدعوة إلى التعليم الإنجليزى فى الهند ومؤسس الجامعة الشهيرة فى عليكرة.

(٢) آثار الصناديد (الأوردية).

(٣) در المعارف (الفارسية).

الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) فإذا قرأت تاريخه وجولاته فى الهند لأجل بث دعوته إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد رأيت ألوفاً يتوبون من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات ، حتى تقفر الحانات وتغص المساجد ، ويتسابقون فى دعوته هو ورفقته الذين يُعدّون بالمئات إلى بيوتهم وصنع الولائم لهم ، ويستهينون فى سبيل ذلك بالأموال ويسترخصون كل عزيز وغال حتى يتقارعوا بينهم أيهم يبدأ وأيهم يتقدم .

وترى فى المسلمين شهامة فى سبيل الدين وعلو همة وسماحة نفس وأريحية لا تعهدها بعد ذلك ، فلما خرج السيد للحج عام ١٢٣٦ هـ ورفقته أكثر من سبعمائة رجل ضَيَّف المسلمون هذا الركب فى كل محل يمر به ، من راى بريلى مسقط رأسه إلى كلكته حيث ركبوا السفن ؛ ولما نزل باله آباد ضَيَّفَه الشيخ غلام على ، وأقام هذا الركب ضيفاً عليه خمسة عشر يوماً ، واجتمع الناس من القرى والضواحى وكلهم يأكلون على مائدة الشيخ الطعام الفاخر ؛ هذا عدا الهدايا التى أهداها إلى أهل الركب والكسوة والزاد الذى قدمه ، وفى أثناء الرجوع لما حلّت القافلة قريباً من مدينة مرشد آباد فى طريقها من كلكته إلى راى بريلى قام ديوان غلام مرتضى بضيافتهم ، وأعلن فى السوق أن كل من يشترى من أهل القافلة أو يستأجر منهم أهل الصناعة فهو يؤدى الثمن من عنده ، وكلمه السيد فى هذا فقال : حسبى من الفخر والشكر أنى أقوم بخدمة الحجاج .

وترى فى الناس رقة فى القلوب وانقياداً للحق وخضوعاً للشرع ، فقد تشرّف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين فى هذا السفر ، وكان الناس ينهالون من كل صقع ويدخلون فى الخير أفواجاً ، حتى إن المرضى فى مستشفى مدينة بنارس أرسلوا إلى السيد يقولون : إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر ، فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل ، وذهب السيد وبايعهم

وأقام فى كلكته شهرين ، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون فى البيعة لا يقل

عددهم عن ألف نسمة يومياً ، وتستمر البيعة إلى نصف الليل ، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً ، فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثمانى عشرة مرة .

وخطب السيد فى الناس فى كلكته خمسة عشر أو عشرين يوماً ، وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ فضلا عن عامة الناس والدهماء ، وكذلك رفيقه الشيخ عبد الحى البرهانوى كان يذكّر كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر ، والناس يتساقطون عليه كالفراش ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلا من الكفار .

وكان من تأثير هذه المواعظ ودخول الناس فى الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر فى كلكته وهى كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ، وكسدت سوقها وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر .

ولما دعا السيد الإمام إلى الجهاد لبّى الناس من كل طبقة دعوته فى نشاط وحماسة ولحقوا به ، وترك الفلاحون سكنهم وأقفل التجار دكاكينهم وغادر الناس أوطانهم وتغربوا فى دين الله ولم يتلفتوا إلى ما وراءهم ولم يلووا على شىء حتى قُتلوا فى سبيل الله فى وادى بالاكوت عام ١٢٤٦ فى الثغور ، ورجع فلّهم إلى قلل الجبال فاعتصموا بها وقضوا نحبهم فى الجهاد .

هذا كله والحضارة الإسلامية فى الهند فى الاحتضار والحكومة الإسلامية فى انهيار ، ولكن لم يزل فى الناس بقية من الأنفة الإسلامية والحمية الدينية والإنابة إلى الله والفرار إليه وسرعة الإجابة للداعى إلى الله ، والاستهانة بالحياة الدنيا وبذل النفوس والنفائس فى سبيل الله .

ورسخت قدم الإنجليز وأصبح نظامهم التعليمى — وهو من أكبر جنودهم —

يؤتى أكله كل حين ، وتسربت فى الناس أفكارهم وميولهم ، فصارت تقلب نظام الحياة ونظام الفكر فى الهند رأساً على عقب من حيث لا يشعر أهلها ، فتقاصرت الهمم فى الدين وخمدت جذوة القلوب وانطفأت شعلة الحياة الدينية ، وانصرفت الرغبات والأهواء والتنافس الطبيعى — الذى هو الدافع الأكبر إلى التقدم — والإبداع ، من الدين والروحانية إلى المعاش والمادة ، وقلت مرغبات الجهد فى الدين والعلم وما يتصل بالروح والقلب ، وتوفرت المزهّدات والمثبطات عنه ، وكثرت الدواعى والحافزات إلى ضده ، واتجه تيار الذكاء والنبوغ والعبقرية — الذى كان متجها من قبل إلى الدين — من صنوف الدين وأقسام العلم الدينى والروحى إلى الإنتاج والإبداع فى أنواع علوم المعاش ومرافق الحياة .

وكان لا يزال بالعهد الراحل رمق و بقية من حياة تنازع الموت وتحاول البقاء ، فكان لا يزال فى الناس رجال يدعون إلى الدين و إصلاح النفوس وتزكيتها وتهذيت الأخلاق وتصفيتها ، وهم تذكار لسلفهم فى زهدهم فى الدنيا والإقبال على الآخرة والإخلاص واتباع السنة ، وكانت لا تزال لهم دعوة فى الناس ، والمسلمون يعدّون الاتصال بهؤلاء والتمسك بأهدابهم حقاً من حقوق الدين وواجباً من واجبات الحياة ، وكان بعض الأغنياء والأمراء وأرباب الدنيا لهم اهتمام زائد بحسن الخاتمة وأمور الآخرة وصلاح القلب وعمارة الباطن ، ولكن كان هذا كله أشبه بالتهاب السراج قبل الانطفاء ، فقد ذوى أصل الشجرة الدينية ، وانقطعت عنها مادة الحياة وهب عليها إعصار فيه نار .

سرى الشك وسوء الظن فى الأوساط الدينية والبيوت العريقة فى الدين والعلم بتأثير المحيط و بتأثير التعاليم الإفرنجية وضعفت الثقة بالله و بصفاته و بمواعيده ، فأصبح الآباء يضنون بأولادهم على الدين ، ولا يخاطرون بأوقاتهم وقواهم فى سبيل الدين وعلوم الدين ، وأصبحوا يعلمونهم العلوم المعاشية واللغات الأفرنجية ، لا رغبة فى تحصيل المفيد النافع ولا دفاعاً عن الإسلام ، بل زهداً فى الدين وفراراً من خطر المستقبل وخوفاً

على أفلاذ أكبادهم من الضياع واستسلاماً للدهر المتقلب ، وتسلط عليهم خوف الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت فى الموت .

وهكذا انقرض هذا الجيل وطُوِى هذا البساط ، ولَفَظَ هذا العهد الروحى نَفَسه الأخير ، وتلاه عهد المادة ، وأصبحت الدنيا سوقاً ليس فيها إلا البيع والشراء .

طغيان المادة والمعدة :

رووا أن شاعرة جاهلية هى كبشة بنت معديكرب عاتبت أخاها عمرو بن معد يكرب ، وعيرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول فقالت :

ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم　　　وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم

ما تتصور المرأة الجاهلية البسيطة أن بطن إنسان يتجاوز مقدار شبر ، فكيف لو رأت معدة الإنسان الحاضر ابن القرن العشرين ؛ تضخمت وكبرت حتى وسعت الأرض وتجاوزت حتى أصبحت لا يملأها إلا التراب .

نعم تضخمت معدة الحرص فى الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال ، وتولد فى الناس غليل لا يُروى وأوار لا يشفى ، وأصبح كل واحد يحمل فى قلبه جهنم لا تزال تبتلع وتستزيد ، ولا تزال تنادى هل من مزيد ؟ هل من مزيد ؟ تسلط على الناس أفراداً وأمماً شيطان الجشع والحرص فكأنَّ بهم مسًّا من الجنون ، وأصبح الإنسان نهما يلتهم الدنيا التهاماً ، ويستنزف موارده حلالاً وحراماً ، ثم لا يرى أنه قضى لبانته وشفى نفسه ، والعهدة فى ذلك على وضع الحياة الحاضرة وطبيعتها وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة . وخليق بمن لا يعتد إلا بحياته الدنيا ولا يرى وراءها عالماً آخر وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته ورأس ماله وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه ، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيِّباتها ولذائذها شيئاً وأن لا يضيع فرصة من فرصها ، ولأى عالم يدخر وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم ولا بحياةٍ بعد هذه الحياة ؟

وقد عبَّر عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلى الشابّ طرفة بن العبد فى صراحة و بساطة فقال :

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
كريم يروّى نفسه فى حياته ستعلم إن متنا غدا أينا الصَّدِى

وكل إنسان متمدن اليوم — إلا من عصمه الله بالإيمان — يرى هذا الرأى ويذهب هذا المذهب فى الحياة ، إلا أنه قد لا يجرؤ على أن يصرح به ، وقد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذى يعبِّر عن ضميره ؛ والسبب الثانى هو الأدب العصري — بمعناه الواسع — الذى لا يتحدّث إلا عن المادة وأصحابها ، ويخنع لأهل الثراء وأصحاب الاحتكار وأصحاب الإنتاج الخنوع الذى لا يليق بالأدب الشريف العالى ، فيكتب دقائق حياتهم فى تفصيل ، و ينشر ألقابهم وأسماءهم بقلم عريض ، وكل نفس من أنفاس مدحه وتقريظه وكل فصل من فصول روايته ينتهى إلى نتيجة مادية أو إلى بطل من أبطال المادة ، ويزين للقارىء المذهب الأبيقورى تارة بالتلميح وتارة بالتصريح ، ويحثّ الشباب على التهام الحياة وانتهاب المسرات نثراً وشعراً وفلسفة ورواية وتحليلا وتصويراً ، فلا ينتهون منه إلا بالروح المادّى والتقديس لرجال المادَّة .

وكذلك المجتمع الذى لايقدِّر إلا الغنى الظريف متناسياً كل مافيه من رذيلة ولؤم أصل وسوء خلق ، ويتجنى على الانسان الذى لايترجح فى ميزانه مهما كثرت مواهبه وطاب عنصره وسما جوهره ، ويلمّح وقد يصرح بأن الفقير لايستحق الحياة ، ويعامله معاملة الدواب والحمير والكلاب ، فيرغم الإنسان — إذا لم يكن ثائراً على المجتمع — على أن يخضع لشريعة مجتمعه ، وأن يتجمَّل و يتظرف لمجتمعه فلا يلبس إلا لغيره ولا يتأنق إلا لغيره .

وهذا المجتمع لاتزال مقاييسه للشرف والظرافة تتغير ومعاييره للإنسانية تتبدل وتتحور ومطالبه تتنوع وتتكثر ، حتى يضيق الإنسان بها ذرعاً و يلجأ إلى طرق

غير شريفة لتحصيل المـال وإلى كدح وكدٍّ فى الحياة ، وهناك هموم تتوالى ولا تنتهى ، ومتاعب تتسلسل ولا تنقطع .

وزاد الطين بلّة تنافس المصانع والمنتجين والصُّناع ؛ ففى كل صباح يتدفق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات وأحدث طراز من السيارات والسجائر والأزياء والقُبّعات والأحذية والأدهان والأطليـة وأسباب الزينة والزخارف والأجهزة ، ولا يجلب منها شىء قياماً بالواجب وسدًّا للعوز ، بل كله فى سبيل الاستغلال الصناعى والاحتكار التجارى ؛ ولا تلبث هذه المنتجات التى هى من فضول الحياة أن تدخل فى أصول المعاش ولوازم المدنية ، والذى لا يتحلى بها لايعد من الأحياء .

ولهذه الأسباب ولغيرها ارتفعت قيمة المـال فى عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه فى الزمن السابق ، وبلغ من الأهمية والمـكانة مبلغاً لم يبلغه على مانعرف فى دور من أدوار التاريخ المدون ، وأصبح المـال هو الروح السارى فى جسم المجتمع البشرى والحـافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المدنى ، وقد يدفع المخترع إلى الاختراع والصانع إلى صناعته والسياسى إلى مقالته والمرشح إلى انتخابه والعالم إلى تأليفه ، حتى القـادة إلى الحرب ، فهو القطب الذى تدور حوله رحى الحياة العصرية كما يقول الأستاذ جود معلم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن : « إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظرية الاقتصادية ، وأصبح البطن أو الجيب ميزاناً لـكل مسألة . فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها » .

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة ، وبنيت حكمك على مؤلفات ومقالات إنما تكتَب فى زاوية من زوايا المـكتب فإنك تغالط نفسك ، وقد تقرأ فى هذه الـكتب الفلسفية أو المقالات العلمية التحليلية كأنك فى عصر متمدن راق تتحكم فيه معايير الأخلاق وتسود فيه المُثُل العليا

و يغشاه سحاب الفضيلة والنبل ، وتحلق عليه روح الديانة والعلم ، ولكن الواقع غير ذلك ، فإن هذه الكتب إنما ألفت فى عالم الخيال الذى يعيش فيه مؤلفوها ، و إن أهواءهم وأذواقهم هى التى خلقت لهم عالماً خيالياً يصفونه و يصورونه فى كتبهم ، حتى يُخيّل إلى القارىء أنه هو العالم المحيط به ، وللأهواء عجائب وخوارق .

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كَثَب لاعن كُتب ، وخالطت الناس ودرست أحوالهم وأصغيت إلى حديثهم فى البيت وفى القطار والبستان وعلى المائدة وفى السمر رأيت (الذهب) حديث النوادى وشغل الألسنة وهوى القلوب ، والبداية والنهاية فى كل موضوع ، والقطب الذى تدور حوله رحى الحياة .

إن شاعراً عربياً يلعن الصعلوك الذى لايتعدى نظره ولا يسمو فكره عن لباس وطعام ويقول :

لحا الله صعلوكا مناه وهمه   من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً

فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدنية وهى تجرى بفلاسفتها وسياسييها ونوابغها وعلمائها وكتّابها وأشرافها وأغنيائها وفقرائها وراء غاية لاتتعدى لبوساً ومطعماً مهما تنوعت أشكالها وتضخمت ألقابها ؟ فالحياة كلها جهاد فى سبيل اللباس والطعام .

التدهور فى الأخلاق والمجتمع :

احتل الأجانب الشرق الإسلامى وقد أصاب المجتمع الشرقى الإسلامى انحطاط فى الأخلاق والاجتماع ، وسبقت إليه أدواء خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية .

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرقى الإسلامى — على علاته — محتفظاً ببعض المبادىء الخلقية السامية والخصائص الاجتماعية الفاضلة التى لا يوجد لها مثيل فى الأمم ، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ووصل من الدقة

والتفصيل واللطافة ورقة الحواشى ذروة لا يصل إليها ذهن العصر ، ولا يتصورها الغربى إلا فى الشعر والأدب .

يقرأ الإنسان أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام وأفراد الأسرة ، وتغلغلها فى الأحشاء واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال وخلوها من كل مصلحة ومنفعة مادية مالا يتصوّره أبناء هذا العصر ، وكذلك من حنوّ الآباء على الأبناء و بر الأبناء بالآباء وتوقير الصغير للكبير وحدب الكبير على الصغير ، ومن عفاف النساء ووفاء الحلائل وأمانة الخدم ووفائهم واستقامة الشبان وثباتهم على الأخلاق ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض ، والمحافظة على الرواتب والعادات والاطراد فى مسئلة اللباس والشعائر والعشرة ، والإيثار فى شأن الأصدقاء والنصح لهم ، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها .

كان بر الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفانى فى سبيلهم والاضمحلال فى وجودهم منتزعاً من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أنت ومالك لأبيك » .

وكان حب الأبناء لآبائهم و برهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين ، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة أصدقائهما وأهل أنسهما والإهداء إليهم والتحبب إلى أولادهم وعشيرتهم ، وكان ذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أبر البر بر الرجل بأهل ود أبيه بعد أن يولى » .

وكان الأبوان مثلا للنصح والإخلاص فى حبهما للأولاد ، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما وميولهما وراحتهما و بلذة الأمومة والأبوة فى سبيل تثقيفهم وتربيتهم وتعليمهم ، يتحملان فى ذلك — حتى الرجل الأمى والمرأة الجاهلة — إجحاف المعلمين وعسفهم و إضرارهم فى بعض الأحيان بجسم الصغار ، ويتجرعان المرائر و يصبران على الغصص فى سبيل الأولاد ونبوغهم ، وقد تواضع على ذلك أهل البيوتات والشرف حتى أهل الطبقات الوضيعة ، و يعدون من خالف ذلك رجلا نذلاً لئيما ، والذى روى عن هارون الرشيد فى تنبيهه لولديه الأمين والمأمون

ووصيته لهما بخدمة الكسائى معروف فى التاريخ ؛ ومن غرائب مايروى فى هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن تاج الدين ألْدز أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغورى أسلم ولده إلى معلم وضرب المعلم الولد حتى مات ، فلما علم بذلك تاج الدين أشار على المعلم بأن يهرب وقال : لا آمن عليك من أم الولد فعسى أن ينالك منها مكروه .

وكانت الرابطة بين الصغير والكبير فى المجتمع الإسلامى مؤسسة على تعليم الشرع : « من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا » .

ومن خصائص الحضارة الشرقية الاطراد فى الحياة والمحافظة على لون واحد والتظاهر بمظهر واحد ، فكان الرجل إذا شرع فى أمر وتظاهر بمظهر واصله إلى غايته ، وإذا اتخذ عادة أو شارة فى اللباس أو عامل أحداً نوع معاملة واظب عليه إلى آخر أنفاسه ، لاتؤثر فى ذلك الحوادث ولا تغيره الفصول ولا انحراف الصحة ولا الكسل ولا المصالح .

ولم يكن العمدة فى حياة الأسرة والقبائل ولم يكن الميزان فى التوقير والشرف هو كثرة المال فيختلف المستوى المالى فى أسرة اختلافاً كبيراً ، ويتفاوت الرجال فى قبيلة أو قوم تفاوتاً عظيما فى المال والجاه ؛ فهذا سرى مثر وذلك فقير معدم ، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادى فى مجتمعات الأسر والبيوتات والمآتم (بمعناها اللغوى) ، فإذا شم أحدٌ رائحة الفرق أو نظرة الازدراء ثار كالليث ، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تنم عن هذا الفصل انسحبت الأسرة كلها من الضيافة وقاطعوا أهل الضيافة ، وكانوا يداً واحدة مع أخيهم المهضوم .

وكان الفقير الصعلوك فى قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجرأة وهو معتزٌّ بنفسه معتدٌّ بشرفه لا يرى فى نفسه نقيصة لأجل فقر ، وكان الغنى أو الملك يكرمه ويحله المحل اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية ، بصرف النظر عن رثاثة

هيئته وتبذله ، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره وصفاء معدنه وطيب منبته ومتانة دينه ووفور علمه .

وكان الفقير فى ذلك العصر يبالغ كثيراً فى إخفاء عسرته وضنك معيشته و يتحمل و يتجلد ، و يسوؤه أن يفطن أحد إلى فاقته ورقّة حاله .

وكان ضمير الحر عزيزاً محترماً كدينه ، وعرضه لا يساوم عليه ولا يباع بأى ثمن ، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت .

وقد روى لنا التاريخ الهندى طرائف فى هذا الباب لا بد أن تكون أمثلتها متوفرة فى تاريخ جميع البلاد الإسلامية : منها أن الشيخ رضى الله البداونى اتهم بالاشتراك فى الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧ م وحوكم أمام حاكم إنجليزى كان من تلاميذه ، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه . ولكن الشيخ أبى وقال : قد اشتركت فى الخروج على الإنجليز فكيف أجحد ؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام ، ولما قُدِّم للشنق بكى الحاكم وقال له : حتى فى هذه الساعة لو قلت مرة إن القضية مكذوبة علىّ ، وإنى برىء لاجتهدت فى تخليصك . فغضب الأستاذ وقال : أتريد أن أُحبط عملى بالكذب على نفسى ؟ لقد خسرت إذاً وضلّ عملى ، بل قد اشتركت فى الثورة فافعلوا ما بدا لكم . وشنق الرجل .

ولم يكن صدقهم واعترافهم بما يعلمون و يعتقدون مقتصراً على ما يتصل بأنفسهم ، بل كانوا صادقين فيما يتصل بالأمة والشعب ، فلم يكونوا يعرفون العصبية الجنسية والوطنية والجنف القومى الذى أصبح اليوم من واجبات الجنسية والوطنية . وكانوا يعدون الكذب وشهادة الزور لأجل الأمة والوطن والملة رذيلة و إثماً كبيراً . وكانوا يعتقدون أن أحكام الشرع تعم الفرد والأمة والأمور الشخصية والاجتماعية . وكانوا متمسكين بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » الآية ، وقوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على

أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » وقوله : « و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وقوله : « و إذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

ومما يروى لنا الشيوخ من ذلك أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين فى قرية كاندهلة من مديرية مظفر نكر فى الولايات المتحدة الهندية على أرض ، فادّعى الهنادك أنها معبد لهم والمسلمون أنها لهم مسجد . وتحاكموا إلى حاكم البلد الإنجليزى فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين ولم يطمئن إلى نتيجة ، فسأل الهنادك : هل يوجد فى القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه ؟ قالوا : نعم فلان ، وسموا شيخاً من علماء المسلمين وصالحيهم ، فأرسل إليه الحاكم وطلبه إلى المحكمة ، فلما جاءه الرسول قال : قد حلفت أن لا أرى وجه أفرنجى ، ورجع الرسول ، فقال الحاكم : لا بأس ولكن احضر وأدلِ برأيك فى القضية . فحضر الشيخ وولى دبره إلى الحاكم وقال : الحق مع الهنادك فى هذه القضية والأرض لهم . وبذلك قضى الحاكم وخسر المسلمون القضية ، ولكن كسبوا قلوب الهنادك وأسلم منهم جماعة .

وكذلك كان الناس يعدون العلم عارية مقدسة ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة فى السوق ، ولا يتعاونون به على إثم آثم وعدوان معتد ، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام جائر أو حكومة غير إسلامية .

ومما حكى لنا الثقات وقرأناه فى التاريخ أن الشيخ عبد الرحيم الرامبورى (م ١٢٣٤ هـ) كان يعلم فى بلدة رامبور براتب زهيد يتقاضاه كل شهر من الإمارة الإسلامية لا يزيد على عشر روبيات (أقل من جنيه مصرى) ، فقدم إليه حاكم الولاية الإنجليزى المستر هاكنس وظيفة عالية فى كلية بريلى راتبها مائتان وخمسون روبية (تسعة عشر جنيهاً مصرياً) ، وذلك يساوى خمسين جنيهاً فى هذا العهد ، ووعد بالزيادة فى الراتب بعد قليل ، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال : إنى أتقاضى عشر روبيات وإنها ستنقطع إذا تحوّلت إلى هذه الوظيفة . فتعجب الإنجليزى وقال : ما رأيت كاليوم

أنا أقدّم راتباً يزيد على راتبك الحالى بأضعاف أضعاف ، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقنع بالنزر اليسير ! . فتعلل الشيخ بأن فى بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام فى بريلى . ولم يفطن الإنجليزى بعد إلى مقصود الشيخ . فقال : أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلى ؛ فتشبث ثالثة بأن حوله طلبة وتلاميذ يقرؤون عليه فى بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم . ولم ييأس الإنجليزى المناقش من إقناعه فقال : أنا أجرى لهم جرايات فى بريلى ويواصلون دروسهم هناك ؛ وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذى أصمى رميته فقال : وماذا يكون جوابى غداً إذا سألنى ربى : كيف أخذت الأجرة على العلم ؟ وهنا بهت الإنجليزى وسقط فى يديه وعرف نفسية العالم المسلم ، وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيه يأخذه كل شهر .

قارن هذه الروح السامية والنفس الكبيرة التى تربأ بالعلم أن يباع بيع السلع ، وتغار على العقيدة والكرامة أن تشترى بمال أو منفعة ، بهذا التبذل والإسفاف الذى وصل إليه أهل العلم والعقل والصناعة فى هذا الزمان ، فقد عرض كثير منهم علمهم وعقلهم وما يحسنونه كالسِّلع فى الأسواق ، يبيعونها بالمناداة (المزاد العلنى) ليشتريها من يزيد فى الثمن كائناً من كان ، فليس الشأن عندهم فى العقيدة ولا فى الغرض والنتيجة ولا فى الملاءمة والذوق ، إنما الشأن عندهم فى الثمن الذى يدفعه المشترى . وكل يوم نطلع على مضحكات مبكيات فى هذا الباب ؛ فهذا الأستاذ كان أمس فى معهد إسلامى يدرس العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامى وقدمت إليه الكلية الكاثوليكية الفلانية وظيفة تدريس براتب يزيد على راتبه السابق بخمسة جنيهات فانتقل إليها ؛ وهذا السيد فلان كان فى وزارة المعارف سابقاً وكان شاباً مثقفاً وعالماً له هوى فى التحقيق والدراسة ، تقرأ له مقالات علمية فى المجلات الراقية ، فإذا به ينتقل فجأة إلى مصلحة الطيران أو الإذاعة . وسألنا : ماذا حدث له حتى غير طريقه وقلب تيار حياته ؟ فأخبرنا أن ذلك لأجل أنه يربح فى مركزه الجديد عشرة جنيهات ؛

وهذا البحاثة الفلانى كتب مقالة عن التصوف الإسلامى ونال بها ثناء أهل العلم قد تحول إلى وزارة الخارجية أو أصبح ترجمان دولة أوربية ، وما هو إلا لأجل زيادة بمقدار بضعة جنيهات . أو ليس هذا لأن الربح المالى قد أصبح كل شىء ، ولأن الذهب اللماع أصبح المتصرف الوحيد فى مناهج الحياة والمسيطر الوحيد على الأرواح والعقليات .

قرأنا فى التاريخ الإسلامى أن المنصور الخليفة العباسى المشهور طلب من ابن طاوس فى مجلس أن يناوله الدواة ليكتب شيئاً فامتنع ، فسأله الخليفة عن سبب امتناعه وعدم امتثاله أمر خليفة المسلمين ، فقال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها ومتعاوناً على الإثم والعدوان . إلى هذا الحد وصل بهم تمسكهم بقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . أما امتناعهم عن قبول منصب القضاء فى نظام لا يرضونه ولا يرتاحون إلى سيره وتفاصيله فرواياته بلغت حد التواتر ، واطردت فى أدوار الحياة الإسلامية الأولى .

قارن هذا الاحتراس من التعاون على الإثم والعدوان ، وهذا التعفف عن المشاركة فى نظام غير صحيح ، والامتناع من أدنى مساعدة لهدف لا يتفق ومصالح الأمة الإسلامية أو يعود عليها بالضرر أو فيه غش وخديعة للأمة ، قارن كل ذلك بهذه المساعدة والتعضيد الذى تتمتع به الحكومات الأوربية من المسلمين ، وهذا الذكاء واللباقة والقلم البليغ واللسان الذلق الذى ينتفع به الأجانب منهم فى مصالحهم وإداراتهم .

فهنالك شبانٌ مسلمون وكتّاب بارعون يتولون تحرير الصحف والمجلات التى تصدرها الحكومات الأجنبية لنشر دعايتها فى بلاد المسلمين والتأثير فى عقليتهم ونفسيتهم ، وتمويه الحقائق بمقدرة المأجورين من المسلمين أنفسهم .

وهنالك جماعة من « الأفاضل » ينحدرون من أصول عربية صميمة ، وينتمون إلى بيوتات عريقة فى المجد والإخلاص للإسلام ، قد جاهد آباؤهم فى سبيل الحق

ومحق الباطل . و بقيت نسبتهم فى أسمائهم تروى لنا تاريخاً مجيداً عن آبائهم حافلاً بجلائل الأعمال ، وجرى دمهم فى عروقهم ، وظهر فى ملامح وجوههم وتقاطيعها ؛ يشتغلون اليوم فى الحكومات الأجنبية ، ويستعملون تلك اللغة المضرية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، والتى تكلم بها رسل المسلمين ، فى مجالس ملوك فارس والروم ، فأدَّوا بها رسالة الإسلام ، وألقوا المهابة فى قلوبهم ، والتى ألقى بها القوّاد المسلمون خطب الجهاد ، بهذه اللغة الكريمة التى لاتليق إلا للبطولة الإسلامية ، و بتلك الكلمات الفصيحة الرائعة التى لاتجمل إلا فى مواضع الحق والجهاد ، ينشر هؤلاء دعاية الحكومات الأجنبية التى تعبث بالمسلمين عبث اللاعب بالكرة ، أو عبث الوليد بجانب القرطاس ، وقد رَزأتهم فى سياستهم واستقلالهم و إيمانهم وعقلهم واقتصادهم ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .

قد سمعنا منهم أن هذه الحكومات تقوم بجهود نبيلة لخير العروبة والإسلام ورفع شأنهما ، وأنها « نور الحرية الوضاء فى عالم ساده الظلام الدامس » ، وقد سمعناهم يشيدون « بالخدمات الجلّى والمساعدات العظيمة التى تقدمها الإذاعة البريطانية فى سبيل نهضة الأقطار العربية وتوحيد تفكيرها وثقافتها وتوثيق الروابط بينها ، وماتقوم به من نشر الثقافة العربية الإسلامية ، وتعريف المسلمين بتاريخهم المجيد ومدنيتهم الزاهرة ، و إطلاع العالم العربى على حقائق الأمور وسير الحوادث فى نزاهة وتجرد وصدق[1] » ولطالما سمعناهم وقرأنا لهم إشادة بإيمان هذه الحكومات بالديمقراطية الصحيحة وجهادها لتوطيد الأمن العام وسلام العالم وحرية الأمم المستضعفة والبلاد المهضومة ، ورفعها لراية العدل ، والمساواة ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وقيامها للحق الخ .

فإذا كان هؤلاء المتحدثون لا يرضى ضميرهم بما يقولون ، ويعرفون أن هذه الكلمات فى غير محلها ، و إنما هو كله لمصالحهم المالية ، فيا لانحطاط النفس الشريفة

---

(١) الكلمات التى بين القوسين منقولة لفظاً .

ويالرخص السلعة الغالية ، وياضيعة الكلمات العامرة بالمعانى ، ويا شقاء اللغة العربية بأهلها ! . وإذا كان ذلك عن اعتقاد وثقة وفهم للمعنى ، فياجهلاً بالحقائق ، ويا إنكاراً للمحسوس ، ويامسخاً للقلوب ! .

سمعنا أن الشاعر الهندى الشيخ محسن الكاكوردى صاحب القصائد النبوية المقبولة كان لايزال يلف يمينه بمنديل ، لأنه لايرضى أن يكتب بها بعد النَّبويات شيئاً ، ولكن بالعكس من ذلك يكتب أديب أوصحافى اليوم كتابا حماسياً فى سيرة بطل من أبطال الجهاد الإسلامى ، أو مجدد من مجددى الإسلام ، ولا يجف مداد مقالته أو كتابه ذلك حتى يكتب بقلمه تقريظا أو ثناء على خائن من خونة الأمة ، أو صنيعة من صنائع الأجانب لمصلحة سياسية ومنفعة مالية ولايرى فى ذلك تناقضاً .

طلب ملك من ملوك العرب من شاعر عربى فرسه فاعتذر أن يعطيها بأى ثمن كان وقال :

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

ولكن كأن الضمير عند هؤلاء الذين يشتغلون فى الحكومات الأجنبية ، أو يذيعون من محطاتها مالايرضى به ضميرهم ولا يصدقه علمهم ، أو يصدرون صحفاً ، أو يؤلفون كتباً على جعالة أو راتب شهرى أذل وأرخص من جواد الجاهلى ، فهو يعار ويباع ، وذلك لم يكن ليعار ولا ليباع . وكانت الروابط والأواصر فى الشرق فى الغالب قائمة على أساس غير مادّى إما عقلى وإما روحى ووجدانى ، وكان للأثرة والأنانية فيها نصيب ضئيل ، وكان نتيجة ذلك وجود روابط وأواصر لايمكن تعليلها بالمادة وجر النفع إلى أصحابها ، وكانت هذه الروابط متغلغلة فى الأحشاء ؛ فمن ذلك أن علاقة التلميذ بأستاذه وإخلاصه وحبه له فى العهد السابق ، يزرى بعلاقة الولد بوالده وحبه له فى هذا العصر .

اشتهر نبأ وفاة الأستاذ الشهير العلامة نظام الدين اللكهنوى م ١١٦١ هجرية صاحب منهاج الدرس النظامى الجارى تطبيقه فى الهند وخراسان ، فلما أتى النعى

تلميذه السيد كمال الدين العظيما بادى مات من شدة الحزن ، وعمى تلميذه الآخر السيد ظريف العظيمابادى من كثرة البكاء ، وتحقق بعد ذلك أن الإشاعة كانت غير صحيحة[1] ، ولعل ذهن العصر لايسيغ هذه الرواية ، ولكن الذى عرف طبيعة الشرق ، ومدى اتصال التلميذ هنالك بأستاذه وحبه له لم يستغرب هذه الرواية ولم يكذبها .

يعلم المطلع على تاريخ الأخلاق وفلسفتها أنه قد ظهرت مدرسة فى أوربا قبل المسيح بأربعة قرون ، وكان لها أنصار من كبار الفلاسفة والأخلاقيين إلى القرن التاسع عشر المسيحى ، تدين باللذة البدنية وتعتقد أنها ميزان للأخلاق ومعيار الأعمال وتشير على أتباعها بأن يهتبلوا فرص التمتع بالحياة الدنيا و يغتنموا فلتات الدهر .

وافترق أصحاب هذه المدرسة فرقتين ؛ فمنهم (أولو الأثرة) الذين يقولون ينبغى أن لا يحول بين الإنسان وشهواته حائل حتى لايدع حاجة فى نفسه إلا قضاها ، فينال بذلك النصيب الأكبر من اللذة والهناءة ، وقالوا : السعادة هى إرضاء الشهوة وقضاء مآرب النفس واقتطاف قطوف المسرة واللذة باليدين .

والفرقة الثانية هم (النفعيون) و يرى أهل هذا المذهب أن الواجب هو تحصيل المنفعة التى ينال بها أكبر عدد من أفراد البشر أوفر قسط من اللذة والهناء ، ولا وزن للأفعال الخلقية فى نظرهم إلا بما تأتى به من المسرة لغالب بنى النوع ، و يرى هؤلاء أن السعادة هى أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام .

و يرى القارىء و يلمس الروح المادى المتعشق للذة والهناء فى آراء هذا المذهب ونزعاته من أحطها وأكثرها إسفافاً إلى أرقاها وأكثرها تحليقاً ، وهذا يختلف عن طبائع الشرق وشرائع السماء اختلافاً بيناً ، وقد أثرت هذه النزعة المادية فى فلسفة الغرب وأخلاقه وأدبه وحضارته تأثيراً عميقاً ، ولا تزال مهيمنة على الحياة الغربية وآدابها حتى اليوم .

---

(١) نزهة الخواطر للشيخ عبد الحى الحسنى (المجلد السادس) .

ثم نزعوا دائماً فى تشخيص المنفعة ووزنها إلى المـادية ، لأنهم احتكموا فيها إلى أذهانهم وعقولهم وقد أصبحت مادية بحتة لأنها لاتؤمن بحقيقة لا تأتى تحت الحس أو المساحة أو العد أو الوزن ، ولا تؤمن بمنفعة لا تجلب لذة وهناء ، حتى مؤسس هذا المذهب « أبيقور م ٢٧١ ق . م » صرح بأن مناط الحكم على الأعمال هى المنفعة ، وأن المنفعة لاقيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطاً ، فكيف وقد تدرجت العقول والطبائع الغربية ومردت على النزوع المادى على تعاقب الأجيال والعصور .

فكان نتيجة ذلك أن الذهن الغربى والمنطق العصرى أصبحا عاجزين عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتباطاً ، وأصبح العقل الأوربى محامياً عن المادية لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية ، وبحساب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء والأفراد من الاغتباط والرخاء ، فأصبح الربح المـادى هو الميزان للأخلاق والفـارق بين الشرّ والخير ، وأصبحت الأخلاق التى لا وزن لها فى ميزان المـادة ، وليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية فى المصطلح القديم ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول ، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضى كحنان الأبوين وحبهما للأولاد ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب ، وتحل محل هذه الأخلاق المقدرة الصناعية والاختراع والانتاج والوطنية والجنسية ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجح وزنها .

ولا يزال المجتمع العصرى يستغنى عن الروابط المنزلية والأرحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية ، ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده أو الزوج زوجها إذا كان هؤلاء الأفراد لايزالون فى الدائرة المدنية التى اختطها المجتمع حول أفراده ؛ وما دام لايحدث عملهم هذا اضطراباً فى المجتمع وثورة على النظام ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد أو فرك من قرينة أو جفاء من زوج أو دعارة من امرأة وفسق من رجل أو خيانة من زوجة .

الباب الخامس

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول

نهضة العالم الإسلامى

اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية :

لأسباب تاريخية عقلية ، طبيعية قاسرة ، ذكرناها فى البحوث السابقة، تحولت أوروبا النصرانية جاهلية مادية ، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية وفضائل خلقية ، ومبادىء إنسانية ، وأصبحت لا تؤمن فى الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادّية ، وفى الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة ، وفى الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية ، والجنسية الغاشمة ، وثارت على الطبيعة الإنسانية والمبادىء الخلقية ، وشُغلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ، ونسيت مقصد الحياة ، و بجهادها المتواصل فى سبيل الحياة و بسعيها الدائب فى الاكتشاف والاختبار مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح وجحودها بما جاءت به الرسل ، و بإمعانها فى المادية ، و بقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الدينى ، والحاجز الخلقى ، أصبحت فيلاً هائجاً ، يدوس الضعيف و يهلك الحرث والنسل ، و بانسحاب المسلمين من ميدان الحياة ، وتنازلهم عن قيادة العالم و إمامة الأمم ، و بتفريطهم فى الدين والدنيا ، وجناياتهم على أنفسهم وعلى بنى نوعهم ، أخذت أوربا بناصية الأمم ، وخلفتهم فى قيادة العالم ،

وتسيير سفينة الحياة والمدنية التى اعتزل ر بانها، و بذلك أصبح العالم كله بأممه وشعو به ومدنياته ، قطاراً سريعاً تسير به قاطرة الجاهلية والمادية إلى غايتها ، وأصبح المسلمون كغيرهم من الأمم ركَّاباً لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وكلما تقدمت أور با فى القوة والسرعة ، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها ، ازداد هذا القطار البشرى سرعة إلى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية ، والانحطاط الخلقى والقلق الاقتصادى والإفلاس الروحى ، وهاهى أور با تستبطىء الآن أسرع قطار ، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائرة بل بسرعة القوة الذرية .

استيلاء الفلسفة الأوربية على العالم :

وليس على وجه الأرض اليوم أمة أو جماعة تخالف الأمم الغربية فى عقائدها ونظرياتها وتزاحمها فى سيرها ، وتعارضها فى وجهتها وتناقشها فى مبادئها وفلسفتها الجاهلية ، ونظام حياتها المادى لا فى أور با ولا فى أمريكا ، ولا فى أفريقية وآسيا ، والذى نرى ونسمع من خلاف سياسى ونزاع بين الأمم فإنما هو تنافس فى القيادة ، وتنازع فيمن يكون هو القائد إلى هذه الغاية المشتركة ، فدول المحور إنما كانت تكره أن يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل ، مستأثرين بموارد الأرض وخيراتها وأسواقها ومستعمراتها ، و بشرف السيادة على العالم وحدهم مع أنها لا تقل عنهم فى القوة والعلم والنظام والنبوغ والذكاء ، بل ربما تفوقهم ، أما أنها كانت تريد أن تسير إلى غاية أخرى وأن تقوم بدعوة المسيح ، وتقيم فى الأرض القسط ، وأن تقود الأمم إلى الدين والتقوى ، وتنصرف بها وتتجه من المادية إلى الروحانية والأخلاق ، فهيهات هيهات !

أما روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية ، قد أينعت وأدركت ، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوروبية إلا أن روسية قد خلعت جلباب النفاق والزّور ونفّذت ما تزوره وتبطنه الأمم الغربية منذ زمن طويل ، وتعتقده منذ قرون فى الأخلاق والاجتماع ، وقد استبطأت روسية سير هاتيك الأمم والدول فى سبيل

الإلحاد واللادينية والإباحة والمادية البهيمية ، فهى تريد أن تتولى قيادة العالم ، وتسير بالأمم الإنسانية سيراً حثيثاً إلى ما وصلت إليه .

الشعوب والدول الآسيوية :

أما الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهى فى طريقها إلى الغاية التى وصلت إليها شعوب أوربا فى الحضارة والسياسة ، وتدين بما تدين به هذه الشعوب فى الأخلاق والآداب والاجتماع ، وتعتقد بما تعتقد به عن الحياة والكون ، وتتحلّى بما تتحلّى به من سيرة وخلق وتهذيب ، إلا أنها لا ترضى أن يتولى أمرها النزلاء الأجانب ويقيموا عليها الحجْر كما يقام على السفيه ، وأن تكون للأوربيين عليها دول وامبراطوريات ينعمون فى ظلها ويرتعون فى جنباتها ، ولا يكون لها مثلها فى الشرق وأفريقية وآسيا ،ولا تستمتع حتى فى داخل بلادها بما استمتع به الأوربيون طويلا حتى فى خارج بلادهم . أما أنها تنكر على الأوربيين ماديتهم وتنقم منهم أخلاقهم وسيرتهم وتنعى عليهم فلسفتهم ومبادئهم فلعل ذلك لا يخطر منها على بال ، بل قد زين لها كل ما تتصف به الأمم الأوربية فحلى فى عينها .

وكلما سنحت لهذه الأمم فرصة الاستقلال وملكت زمام أمورها تجلت أخلاقها ومبادئها وظهرت سيرتها الجاهلية فى صورتها الطبيعية الحقيقية ، فإذا هى أفظع صورة وأبشعها فى التاريخ ، قساوة قلب وضراوة بالدم الإنسانى وهتكا للأعراض ونهباً للأموال وقتلا وتدميراً ، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على أثر استقلالها من الحكم الأجنبى فظائع ومنكرات تستبشعها الوحوش والسباع وتستك منها الأسماع ، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة بعصبية دينية وسياسية معاملة عزّ نظيرها فى التاريخ ، رضعاء يقتلون ويقطعون إرباً إرباً ، ونساء تهتك أعراضهن ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء ، وآبار تسمم و بيوت تهدم ونيران تشعل وقنابل تقذف ، وإذا دخلوا قرية فاتحين منتصرين أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ووضعوا

فيها السيف ، وعاث الوحوش فى الدماء والأعراض حتى قفرت القرى ، وامتلأت الآبار بالسيدات اللاتى آثرن الموت على هتك الأعراض ، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة لم تسبق فى التاريخ ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التى يشك فيها الناس فى البلاد الإسلامية والمتحضرة .

هذا غير ذلك الاضطهاد الدينى والمقاطعة الاجتماعية التى تلقاها تلك الطوائف فى بلادها ، وما تلقى ثقافتها وديانتها من مطاردة ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب ، فتحرم من الحرية الثقافية واللسانية وترغم على لغة مصطنعة داثرة ، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ، ويختلقوا عليها الأكاذيب والجنايات ، ويمثلوا قصة الحمل والذئب كل يوم ، فيعزل رجالها من الوظائف وتسد فى وجوههم أبواب المعاش والتجارة والحرف ، وتقفل دكاكينهم ومحالهم التجارية وتصادر أملاكهم وأموالهم بعلل واهية مضحكة .

ثم إن هـذه الأمم أفلست إفلاساً شائناً فى الدين والأخلاق ، وقد أشربت فى قلوبها حب المـال والمـادة ، وتسلط عليها شيطان الأثرة والجشع حتى ضجت منها الحـكومات وتعبت ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، فلما التجأت الحـكومة إلى التسعير اختفت السِّلع والأموال ، وأصبح النـاس لا يجدون كسوة ولا طعاماً ولا حاجة إلا بالسعر الذى يريده التاجر ، فنفقت السوق السوداء وشاعت الجنايات والخيانات والارتشاء والتهريب ، وأصبحت الحـكومة والتجار كفرسى رهان أو قرنى ميدان كل يريد أن يغلب صاحبه وينتهز غِرّته ، وأصبح الناس حبة بين حجرى الرحى لا يدرون كيف يفعلون .

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا فى هذه الأمم حياة جـديدة ويبثُّوا فيها روح الأخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد ففشلوا فشلا تاماً ، وعلموا أن خلق أمة بأسرها أهون من إصلاح هـذه الأمم وتهذيبها وقد انقطعت مادتها وانقضى أجلها .

وهكذا أصبح العالم شرقا وغرباً فى أزمة روحية وخلقية واجتماعيـة واقتصادية تطلب حلاً سريعاً عاجلاً .

الحل الوحيد للأزمة العالمية :

والحل الوحيد هو تحوّل القيادة العالمية ، وانتقال دفّة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التى أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة .

إن تحوّل القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لايغنى غناء ولا يُغَـيِّر من الموقف شيئا ، فإن هذا التحوّل ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس ، فما دام المجدِّف واحـداً فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدى رجل واحد تتداول دفّة الحياة ، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحدٍ إلى جهة واحدة .

إن التحوّل المؤثر الواضح هو تحوّل القيادة من أوروبا — بالمعنى الواسع الذى يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية — التى تقودها المادية والجاهلية ، إلى العالم الإسلامى الذى يقوده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالته الخالدة ودينه الحـكيم .

هذا هو التحوّل الذى يُغير وجه التاريخ ، ويحوّل مجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التى ترقبه .

إن حقاً على العالم الإسلامى أن يمنى نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح إليه ، وإن حقاً على كل بلد إسلامى وشعب إسلامى أن يشد حيازيمه لذلك ، وإن حقاً على كل مسلم أن يجاهد فى سبيله ويبذل ما فى وسعه ، فهذه هى المهمة الشريفة التى نيطت بالأمة الإسـلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ، ويوم ظهرت نواتها فى جزيرة العرب .

العالم الإسلامى على أثر أوروبا :

من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا فى الزمن الأخير فى كثير من نواحى الأرض حتى فى مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوربية وجنوداً متطوعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى فى الشعوب الأوربية التى تزعّمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحاً جديدة ، وركزت أعلامها على الشرق والغرب ، ناصراً للمسلمين ، حامياً لذمار الإسلام المستضعف ، حاملا لراية العدل فى العالم قوّاماً بالقسط .

ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامى ، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء فى عروق الشجر والكهرباء فى الأسلاك ، فترى المادية الغربية فى البلاد الإسلامية فى كثير من مظاهرها وآثارها ، ترى تهافتاً على الشهوات ونهماً للحياة نهَمَ من لايؤمن بالآخرة ، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة ، وبدار غير هذه الدار فهو خليق بأن يقضى نهمته ، ويشفى غلته فى هذه الحياة ، ولا يدخر من طيباتها شيئاً . وترى تنافساً فى أسباب الجاه والفخار وتكالباً عليها فعل من يغلو فى تقويم هذه الحياة وأسبابها ، وترى إيثاراً للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق ، شأن من لا يؤمن بنبيّ ولا بكتاب ، ولا يرجو معاداً ، ولا يخشى حسابا . وترى حباً للحياة وكراهة للموت ، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته ، ومنتهى أمله ، ومبلغ علمه ، وترى افتتانا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التى ليس عندها أخلاق ولا حقيقة روح ، وترى خضوعا للإنسان ، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعَبَدَة الأصنام .

المسلمون على علاتهم موئل الانسانية وأمة المستقبل :

ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض ، التى تُعَد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها فى قيادة الأمم ، ومزاحمتها فى وضع العالم ، والتى يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم ، وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها ، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى ، وإلى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوة ، والتى يحرِّم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول أمة جاهلية .

هذه هى الأمة التى يمكن أن تعود فى حين من الأحيان خطراً على النظام الجاهلى الذى بسطته أوربا فى الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم محمد إقبال فى قصيدته البديعة : (برلمان إبليس) على لسان إبليس ، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى ، وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجَّسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا فى فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم ، وجلّوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثانى : لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى ، إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن فى الأمير والملك . إن الملوكية لا تنحصر فى وجود شخص ترتكز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواء فى ذلك الشعب والفرد . أما رأيت نظام الغرب الجمهورى وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان ! .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب

المحترم فى هذه الفتنة الدّهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى كارل ماركس ، ذلك الباقعة الذى ليس نبياً ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مبانى الإمارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : ياصاحب الفخامة ، إن سحرة أوربا وإن كانوا مريديك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم بقواعده فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحاً) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وهاهى قد استفحلت وتفاقم شرها ، وهاهى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، ياسيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقضّ عليك ، وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن !

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال : إنى أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً إذا حرّشت بين الأمم الأوربية فتهارشت تهارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ، وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لايرفأه المنطق المزدكى (الفلسفة الاشتراكية) . لا يخوّفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحَراً ، لايخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ؛ ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزّته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة (محمد صلى الله عليه وسلم) . إنى أحذركم وأنذركم من دين محمد (صلى الله عليه وسلم) حامى الذمار ، حارس الذِّمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين فى أموالهم[١] أمناء لله وكلاء على المال . وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يترك مشتغلا بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سِحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحَره ، اشغلوه يا إخوانى عن الجِدّ والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسّه .

---

(١) أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . (الحديد)

رسالة العالم الإسلامى :

لا ينهض العالم الإسلامى إلا برسالته التى وكلها إليه مؤسسه صلى الله عليه وسلم والإيمان بها والاستماتة فى سبيلها ، وهى رسالة قوية واضحة مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها .

وهى نفس الرسالة التى حملها المسلمون فى فتوحهم الأولى ، والتى لخصها أحد رسلهم فى مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف ، فهى منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحى ، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية .

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم — من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة — ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة ، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال إله الهوى يعبد ، ولا يزال الأحبار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرّب لها القرابين وينصب لها الجبين .

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان ، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهله منه بالأمس ، قد ضيّقته المادية التى لا تنظر إلا إلى قدمها ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات . وقد خنقته الأثرة التى لا تسمح لاثنين بالعيش فى إقليم واسع ، والوطنية الضيقة التى تنظر إلى كل أجنبى شزراً ، وتجحد له كل فضل وتحرمه من كل حق .

ثم ضيّق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت ، يضيقون هذه الحياة لمن شاءوا ويوسعونها لمن شاءوا ويبسطون الرزق — زعموا — لمن شاءوا ويقدرونه لمن شاءوا ، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب ، وأصبح الناس فى بلادهم فى شبه حجْر كحجر السفيه واليتيم ، وضاقت على الناس الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وأصبح الناس فى أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مُهدَّدين فى كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية ، وحروب خارجية وداخلية ، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية .

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ! ولا تزال فى هذا العصر المتنور الراقى المثقف أديان تعبث بعقول الناس وتسخِّرهم كالحمير والبقر ، وتزيِّن لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت فى عيد الأضحى ، أو شجرة مقدسة عُضِدت فى قرية من القرى .

وهنالك أديان بغير اسم الأديان لا تقل فى نفوذها وسلطانها ، ولا تقل فى جورها وعدوانها وعبثها بعقول أتباعها وفى عجائبها عن الأديان القديمة ، وهى النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التى يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، كالجنسية والوطنية ، والديمقراطية والاشتراكية ، والدكتاتورية والشيوعية ، وهى أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها ، وأضيق عطنا من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسى اليوم أفظع من الاضطهاد الدينى فى القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادىء السياسية ، أو انتصر فريق على فريق فى الانتخاب سدَّ فى وجه منافسه الأبواب وعذّبه أشد العذاب . وما حرب إسبانيا الأهلية التى دامت مدة طويلة ، وسفكت فيها دماء غزيرة ، وما حرب الصين التى قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين ، وحرب كوريا التى قامت بين الجنوبيين والشماليين ، إلا نتيجة اختلاف فى العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية .

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر ، وجائزته

الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوآتها للناس واشتدَّ تذمّر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، لو نهض العالم الإسلامى ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال .

الاستعداد الروحى :

ولكن العالم الإسلامى لا يؤدّى رسالته بالمظاهر المدنية التى جادت بها أوربا على العالم ، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التى ليست من نهضة الأمم فى شىء . إنما يؤدى رسالته بالروح والقوة المعنوية التى تزداد أوربا كل يوم إفلاساً فيها ، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة ، والزهد فى حطام الدنيا وتحمل الأذى فى ذات الله صابراً محتسباً ، قال الله تعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون » فقوّة المؤمن وسر انتصاره فى إيمانه بالآخرة ورجائه لثواب الله ، فإذا كان العالم الإسلامى لا يرى إلا ما تراه أوربا من العرض القريب ، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوربا من حطام الدنيا ، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوربا من المحسوسات والمادّيات ، كانت أوربا بقوتها المادّية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامى الذى يتخلف عنها فى القوة المادية تخلُّفاً شائناً ولا يفوقها فى القوة المعنوية .

لقد أتى على العالم الإسلامى حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى نضب معينها فى قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامى فى المعارك التى تحتاج إلى الإيمان ، والصبر والثبات ،

وتحمل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها ، وبحث في جعبته فلم يجد شيئا يسد مكانها ويغني غناءها .

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة ، وهو يرى أن المسلمين تقوم قيامتهم ، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة ، ويغضبون لله ورسوله وحرماته ، وإن الأقطار الإسلامية تشتعل ناراً وتتوقد حمية وحماسة ، فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر ، وإذا النصر ضئيل والسخط خافت ، وإذا العالم الإسلامي كعادته في غدواته وروحاته ، منهمك في لذاته وشهواته ، كأن لم يحدث كبير شيء ، فعرف أن الحمية الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي ، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي وخذلانه وهوانه على أنفسهم .

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي وجمعياته وهيئاته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى ، لاتدخر في ذلك وسعاً ، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة ، وطرق النشر والتعليم ، كتجوال الدعاة في القرى والمدن ، وتنظيم الخطب والدروس ، ونشر الكتب والمقالات ، ومدارسة كتب السيرة ، وأخبار الصحابة ، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية ، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه ، ومذاكرة أبواب الجهاد ، وفضائل الشهداء ، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب ، وجميع القوى والوسائل العصرية .

والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان ، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على

العصر الجاهلى ، وتجعلا من أمّة مستسلمة ، منخذلة ناعسة ، أمةً فتيــة ملتهبة حماسة وغيرة وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة .

إن علّة علل العالم الإسلامى اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد فى الحياة ، فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه مُنكر ، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس . ولـكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية — إن وجدا إلى القلب سبيلا — يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، و بين راحة الجسم ونعيم القلب ، و بين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبىّ فى وقته ولا يصلح العالم إلا به ، حينئذ يقوم فى كل ناحية من نواحى العالم الإسلامى ، بل فى كل أسرة إسلامية فى كل بلد إسلامى « فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » .

هنالك تتجدد ذكرى بلال ، وعَمّار ، وخباب ، وخُبيب ، وصُهيب ، ومصعب ابن عمير ، وعثمان بن مظعون ، وأنس بن النضر . هنالك تفوح روائح الجنة ، وتهب نفحات القرن الأول ، ويولد للإسلام عالم جديد لايشبه العالم القديم فى شىء !! .

الاستعداد الصناعى والحربى :

ولـكن مهمة العالم الإسلامى لاتنتهى هنا ، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة ، والاستعداد التام فى العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب ، وأن يستغنى عن الغرب فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وفى كل حاجة من الحاجات ، يقوت ويكسو نفسه ، ويصنع سِلَاحه ، وينظم شئون حياته ، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها ، ويدير حكوماته برجاله وماله ، ويمخر

بحاره المحيطة به بسفنه وأساطيله ، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده ، وتزيد صادراته على وارداته ، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب ، ولا يضطر إلى أن يلجأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكراته .

أما مادام العالم الإسلامى خاضعاً للغرب فى العلم والسياسة والصناعة والتجارة ، يمتص الغرب دمه ، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة ، وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامى وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شىء ، وما دام العالم الإسلامى يستدين من الغرب الأموال ، ويستعير منه الرجال ، ليديروا حكومته ، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدرّبوا جيوشه ، ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع ، وينظر إليه كأستاذ ومربّ ، وسيد ورب ، لا يبرم أمراً إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه ، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلا عن أن يناهضه ويغالبه .

هذه هى الناحية العلمية والصناعية التى أخلّ بها العالم الإسلامى فى الماضى فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة ، وابتلى العالم الإسلامى بالسيادة الأوربية الجائرة التى ساقت العالم إلى النار والدّمار والتناحر والانتحار ، فإن فرط العالم الإسلامى مرة ثانية فى الاستعداد العلمى والصناعى والاستقلال فى شئون حياته كُتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

التنظيم العلمى الجديد :

ولابد للعالم الإسلامى من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته . وقد ساد العالم الإسلامى على العالم القديم بزعامته العلمية ، فتسرّب بذلك فى عقلية العالم وثقافته ، وتغلغل فى أحشاء الأدب والفلسفة ، وظل العالم المتمدن قروناً يفكر بعقله ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته ، فكان المؤلفون فى إيران وتركستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتاباً له شأن إلا باللغة العربية ، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالى فى « كيمياء السعادة » ، وإن كانت هذه الحركة

العلمية التى ظهرت فى صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم ، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامى النقى والروح الإسلامى ؛ وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية ، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها ، واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة .

وجاءت نهضة أوربا فنسخت هـذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمى ، ووضعت منهاجاً جديداً للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسيتها المادية ، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح ، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمى وخضع له العالم الإسلامى بطبيعة الحال — إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمى والشلل الفكرى من زمان ، وكان لا يجد المدد والغوث إلا فى أوربا — فقبل هذا النظام التعليمى على علاته ، فهو النظام السائد اليوم فى أنحاء العالم الإسلامى .

وكانت نتيجة هـذا النظام الطبيعية ، صراعاً بين النفسية الإسلامية — إن كانت لا تزال فى الشباب لم تقتلها البيئة — وبين النفسية الجديدة ، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاق الأوربية ، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها ، وكانت نتيجة هذا النظام حدوث الشك والنفاق فى الطبقة المثقفة ، وقلة الصبر ونهامة الحياة وترجيح العاجل على الآجل ، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوربية .

فإذا أراد العالم الإسلامى أن يستأنف حياته ، ويتحرر من رق غيره ، وإذا كان يطمح إلى القيادة ، فلابد إذن من الاستقلال التعليمى ، بل لا بد من الزعامة العلمية ، وما هى بالأمر الهين ، إنها تحتاج إلى تفكير عميق ، وحركة التدوين والتأليف الواسعة ، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه ، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة ، إنها هى من شأن الحكومات الإسلامية ، فتنظِّم لذلك جمعيات وتختار لها أساتذة بارعين فى كل

فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التى لا تتبدل و بين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامى على أساس الإسلام وبروح الإسلام ، وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما ينظّمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم و يستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب ، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الإسلامية ، ويديرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامى فى إدارة البلاد ، وتنظيم الشئون المالية على النظم الأوربية ، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوربا عن حلها .

وبالاستعداد الروحى والاستعداد الصناعى والحربى والاستقلال التعليمى ينهض العالم الإسلامى ، ويؤدى رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذى يهدده . فليست القيادة بالهزل ، إنما هى جد الجد ، فتحتاج إلى جد واجتهاد ، وكفاح وجهاد ، واستعداد أى استعداد :

كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

الفصل الثانى

زعامة العـــالم العربى

أهمية العالم العربى :

إن العالم العربى له أهمية كبيرة فى خريطة العالم السياسية ، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أكبر دور فى التاريخ الإنسانى ، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى : الذهب الأسود الذى هو دم الجسم الصناعى والحربى اليوم ؛ ولأنه صلة بين أوربا وأمريكا ، وبين الشرق الأقصى ؛ ولأنه قلب العالم الإسلامى النابض يتجه إليه روحياً ودينياً ويدين بحبه وولائه ؛ ولأنه عسى — لا قدر الله — أن يكون ميدان الحرب الثالثة ، ولأن فيه الأيدى العاملة ، والعقول المفكرة ، والأجسام المقاتلة ، والأسواق التجارية ، والأراضى الزراعية ؛ ولأن فيه مصر ذات النيل السعيد بنتاجها ومحصولها وخصبها وثروتها ورقيها ومدنيتها ؛ وفيه سورية وفلسطين وجاراتها ، باعتدال مناخها وجمال إقليمها وأهميتها الاستراتيجية ، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها ومنابع البترول فيها ؛ والجزيرة العربية بمركزها الروحى وسلطانها الدينى ؛ واجتماع الحج السنوى الذى لا مثيل له فى العالم وآبار البترول الغزيرة . كل ذلك قد جعل العالم العربى محط أنظار الغربيين ، وملتقى مطامعهم ، وميدان تنافس لقيادتهم ، وكان رد فعله أن نشأ فى العالم العربى شعور عميق بالقومية العربية ، وكَثُرَ التغنى « بالوطن العربى » و « المجد العربى » .

محمد رسول الله روح العالم العربى :

ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربى بغير العين التى ينظر بها الأوربى ، وبغير العين التى ينظر بها الوطنى العربى ، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره ،

ومعقل الإنسانية ، وموضع القيادة العالمية ؛ ويعتقد أن سيدنا محمداً العربى هو روح العالم العربى وأساسه ، وعنوان مجده ؛ وأن العالم العربى — بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات — جسم بلا روح ، وخط بلا وضوح ، إذا انفصل — لا سمح الله بذلك — عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطع صلته بتعاليمه ودينه ؛ وأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى أبرز العالم العربى للوجود ، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوباً مستعبدة ومواهب ضائعة ، وبلاداً تتسكع فى الجهل والضلالات ، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية والفارسية ، ولا يخطر ذلك منهم على بال ، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم فى حال من الأحوال ، وكانت سورية التى تكوّن جزءاً مهماً من العالم العربى مستعمرة رومية تعانى الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد ، لا تعرف معنى الحرية والعدل ، وكان العراق مطية لشهوات الدولة الكيانية مثقلة بالضرائب المجحفة والأتاوات الفادحة . وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً ، يجزون صوفها ويظلمونها فى علفها ، ثم إنها تعانى الاضطهاد الدينى مع الاستبداد السياسى ، فما لبث هذا العالم المفكّك المنحل ، المظلوم المضطهد ، أن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، أدرك رسول الله هذا العالم وهو ضائع هالك ، وأخذا بيده وهو ساقط متهالك ، فأحياه بإذن الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه ؛ فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام ، ورسول الأمن والسلام ، ورائد العلم والحكمة ، ومشعل الثقافة والحضارة . كان غوثاً للأمم ، غيثاً للعالم ، هنالك كانت الشام ، وكان العراق ، وكانت مصر ، وكان العالم العربى الذى نتحدث عنه ، فلولا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا رسالته ، ولولا ملّته ، لما كانت سورية ، ولا كان العراق ، ولا كانت مصر ، ولا كان العالم العربى ، بل ولا كانت الدنيا كما هى الآن حضارة وعقلا ، وديانة وخلقاً ؛ فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربى وحكوماته وولّى وجهه

شطر الغرب أو أيام العرب الأولى ، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره ، ولم يرض برسول الله قائداً ورائداً ، وإماماً وقدوة ، فليردّ على محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى ، حيث الحكم الرومانى والإيرانى ، وحيث الاستعباد والاستبداد ، وحيث الظلم والاضطهاد ، وحيث الجهل والضلالة ، وحيث الغفلة والبطالة ، وحيث العزلة عن العالم ، والخمول والجمود ، فإن هذا التاريخ المجيد ، وهذه الحضارة الزاهية ، وهذا الأدب الزاخر ، وهذه الدول العربية ، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام .

الإيمان هو قوة العالم العربى :

فالإسلام هو قومية العالم العربى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو روح العالم العربى وإمامه وقائده ، والإيمان هو قوة العالم العربى التى حارب بها العالم البشرى كله فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه ، ويؤدّى رسالته . إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدوًّا آخر بالمال الذى ترضخه بريطانيا أو تتصدق به أمريكا ، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود ، إنما يحارب عدوّه بالإيمان والقوة المعنوية ، وبالروح التى حارب بها الدولة الرومية والامبراطورية الفارسية فى ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعاً . إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة ، وعقل يخامره الشك وتتنازع فيه الأفكار والأهواء ، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان ، وقوة متخاذلة فى الميدان ؛ فالمهم لأمراء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية أن يغرسوا الإيمان فى الشعوب العربية ، وجماهير الأمة وأولياء الأمور ، والجيوش العربية والفلاحين والتجار ، وفى كل طبقة من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد فى سبيل الله ، والتوق إلى الجنة ، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا ، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة ،

وكيف يتحملون الشدائد فى سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بثغر باسم ، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور .

العناية بالفروسية والحياة العسكرية :

من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية ، ورزئت فى فروسيتها التى كانت معروفة بها فى العالم ، فكانت رزيئة كبيرة وخسارة فادحة ، وكانت سبباً من أسباب ضعفها وعجزها فى ميدان الجهاد ، فقد اضمحلت الروح العسكرية ، وضعفت الأجسام ونشأ الناس على التنعم ، وقد حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ، وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية ، واستبدلوا بها ألعاباً لاتفيدهم شيئا ، فالمهم لرجال التعليم والتربية وقادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية ؛ وعلى البساطة فى المعيشة وخشونة العيش والجلادة وتحمل المشاق والمتاعب ، والصبر على المكروه ! .

وقد كتب المربى الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله العرب، وهم فى بلاد العجم : « إياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمّام العرب ، وتمعددوا[١] ، واخشوشنوا[٢] ، واخشوشبوا[٣] ، واخلولقوا[٤] ، واعطوا الركب أسنتها ، وانزوا نزوا ، وارموا الأغراض[٥] » . وقد قال النبى صلى الله عليه

---

(١) تمعدد الغلام شب وغلظ . وقيل معناه : تشبهوا بعيش معد بن عدنان . وكان ذا غلظ وقشف .

(٢) اخشوشن : تخشن فى المطعم والملبس .

(٣) اخشوشب : صار صلباً كالخشب فى أحواله وصبره على الجهد .

(٤) تبذلوا فى الملابس .

(٥) رواه البغوى عن أبى عثمان النهدى .

وسلم : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً[١] » وقال : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى[٢] » .

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكل قوتهم مايضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخنث والعجز ، من عادات وأدب وصحافة وتعليم ، ويأخذوا على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع الملحد ، الذي ينشر فى الشباب النفاق والدعارة والفسوق ، وعبادة اللذة والشهوات ، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا أن يدخلوا فى معسكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها ، ويزينوا لها الفسوق والعصيان ، وحب الفحشاء ، بثمن بخس دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأن كل أُمة أصيب رجالها فى رجولتهم وغيرتهم ، ونساؤها فى أنوثتهن وأُمومتهنَّ ، وطغى فيهنّ التبرُّج ، ومزاحمة الرجال فى كل شىء ، والزهد فى الحياة المنزلية ، وَحُبِّبَ إليهنَّ العقم ، أفل نجمها وكسفت شمسها ، فأصبحت أثراً بعد عين .

هذه كانت عاقبة اليونان والرومان والفرس ، وإن أوروبا لفى طريقها إلى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربى من هذا المصير الهائل .

محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغنى والصعلوك :

وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة ، والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير ، والاستهانة بمال الله فى سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة .

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير ، جوع وعرى وفقر فاضح ، يرى الناظر مناظره الشائنة فى عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

وينتكس الرأس حياء وخجلاً ، فبينا هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه ، إذا ببدوى لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه ، وبينما أمراء العرب وأغنياؤهم على سيارات تبارى الريح وتثير النقع ، إذا بفوج من النساء والأطفال عليه ثياب سوداء قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس يعدو لأجل فلس أو قرص ؛ فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة ، وبين الأكواخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة ، ومادامت التخمة والجوع يزخران فى مدينة واحدة فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا تقفها دعاية ولا قوة ، وإذا لم يسد النظام الإسلامى فى بلاده بجماله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقاباً من الله كردّ فعل عنيف .

استقلال البلاد العربية فى تجارتها وماليتها :

وكذلك لابد للعالم العربى — كالعالم الإسلامى — من الاستقلال فى تجارته وماليته وصناعته وتعليمه ، لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه وتنسجه يده ، وتستغنى عن الغرب فى جميع شئون حياتها ، وفى كل ما تحتاج إليه من كسوة وطعام ، وبضائع ، ومصنوعات ، وأسلحة ، وجهاز حربى ، وآلات وماكينات ، وأدوية ، فلا تكون كَلًّا على الغرب وعيالا عليه فى معيشتها ومتطفلة على مائدته .

إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الغرب — إذا احتاج إلى ذلك ودعت إليه الظروف — وهو مدين له فى ماله ، عيال عليه فى لباسه وبضائعه ، لا يجد قلماً يوقّع به على ميثاق مع الغرب ، إلا القلم الذى صنع فى الغرب ، ولا يجد ما يقاتل به الغرب ، إلا الرصاص الذى أفرغ فى الغرب . إن عاراً على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها ، وأن يجرى ماء الحياة من عروقها وشرايينها إلى أجسام غيرها ، وأن يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه ، ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله ، فلابد للعالم العربى أن يقوم هو نفسه بحاجاته ، وتنظيم التجارة

والمالية ، وحركة التوريد والتصدير والصناعة الوطنية وتدريب الجيش وصنع الآلات والماكينات ، وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة فى خبرة ومهارة فنية وأمانة ونصيحة .

تقدم مصر فى ميدان التجارة والصناعة والعلم :

ولابد هنا من الاعتراف بأن مصر قد أثبت كفايتها واستعدادها الكبير فى ميدان العلم والصّناعة ، وتربية الرجال ونشر الثقافة ، ونقل العلوم العصرية إلى اللغة العربية وبواسطتها إلى الأمة العربية ، وعنايتها بالصّناعة الوطنية وتنظيم شئون دولتها وماليتها على أساس العلم العصرى ، أما فضلها على اللغة العربية وإحياؤها للكتب العربية وتقدم الصحافة والطباعة وحركة النشر فيها فمن المآثر والمفاخر التى سيسجلها التاريخ ، ويردد صداها المستقبل ويدين بفضلها العرب جميعاً .

رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي :

والعالم العربى بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافى وأهميته السياسية يُحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامى ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل ، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله ، ويحوّل العالم من الشر إلى الخير ومن النار والدّمار إلى الهدوء والسلام ، أوكما عبّر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

هاهو العالم الإنسانى يرنو إلى العالم الإسلامى كمنقذه ، وها هو العالم الإسلامى قد شخص ببصره إلى العالم العربى كزعيمه وإمامه ، فهل يحقق العالم الإسلامى أمل العالم البشرى ؟ وهل يحقق العالم العربى رجاء العالم الإسلامى ؟ !

فهرس الكتاب

صفحة

الباب الثانى : من الجاهلية إلى الإسلام

الباب الثالث : العصر الإسلامى

صفحة